الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة محمد الصديق بن يحيى تاسوست – جيجل–

كلية الآداب واللـغات قسم اللغة والأدب العربي

الجوانب الفنية والتوجيهات النقدية في الرحلة العبدرية

مـذكرة مكملة لمتطلبات نيل شهادة الماستر في اللغة والأدب العربي

تخصص: أدب قديم

إعداد الطالب:

ياسر قاسمي

إشراف الدكتور:

نور الدين سعيداني

أعضاء لجنة المناقشة:

الدكتور: فريد عوف	رئيسـا
الدكتور: نور الدين سعيداني	مشرفا ومقررا
الدكتور: محمد زكور	عضـوا مناقشا

السنة الجامعية:

1443/1442هـ

2022/2021 م

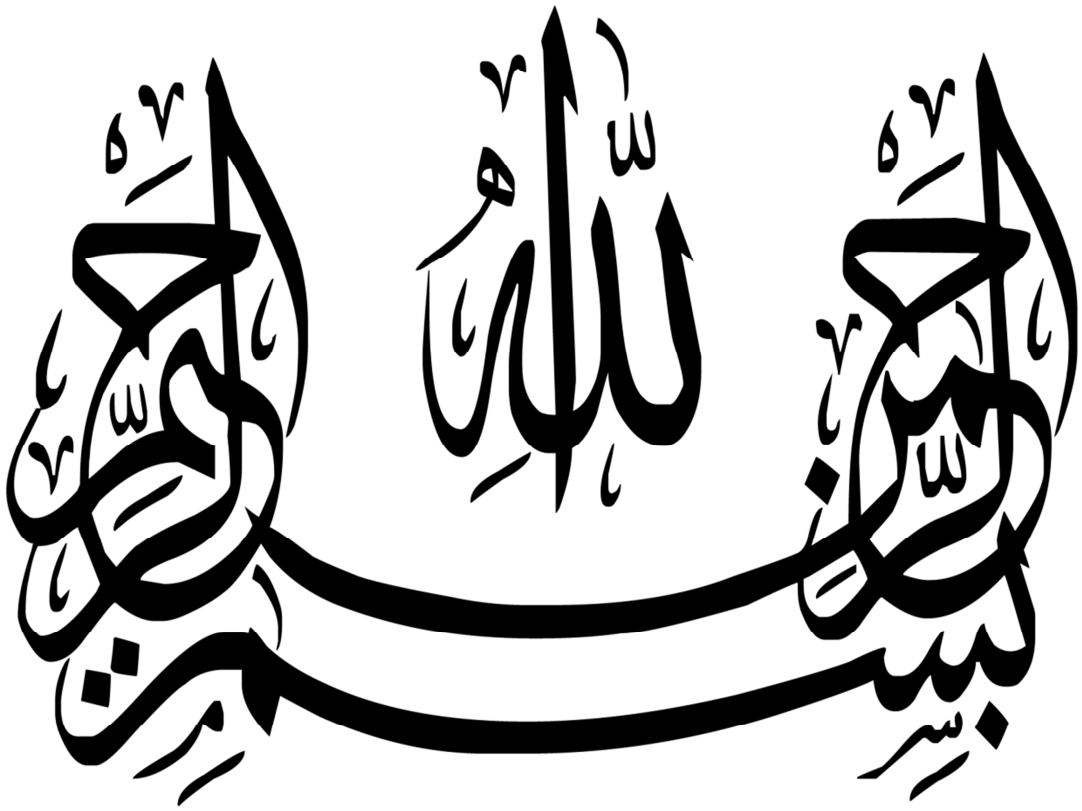
بسم الله الرحمن الرحيم

شكر وعرفان

قبل كل شيء نحمد الله ونشكره على جزيل فضله ونعمه، فهو الذي وفقنا لإتمام هذا العمل.

إلى أستاذي المشرف "نور الدين سعيداني" لك منّي جزيل الشّكر والامتنان، والتقدير والعرفان، بعدد قطرات المطر وألوان الزهر على كلّ نصائحك وتوصياتك القيّمة، وجهودك المبذولة في سبيل خدمة العلم وطلابه.

الشّكر والتقدير كذلك موصولان لكلّ من أحبّ وشجّع، وساعد وساند، عائلتي وأهلي.

ونتوجه بالشكر إلى كل من ساعدنا ولو بكلمة طيبة أو دعاء خالص

وصلّ اللّهم على محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين.

مقدمة

بثّ الله في الإنسان روح المعرفة وحبّ الاكتشاف من أجل الاستمرار في الحياة وبلوغ متطلباتها التي لا تتسنى له إلاّ بالرحلة، فهي الحافز الأوّل الذي كان يرافق دائمًا ازدهار أغلب الحضارات، وهي التي تعطي للحياة نكهة التجديد والانطلاق.

وتعدّ الرّحلة من أبرز أنواع الفنون النثرية، المتجذرة في الأدب العربي، لما تملكه من ثراء فكري وفن جمالي ولما لها من طاقة للرصد التاريخي والجغرافي للبلدان والممالك والشعوب، ينقلها لنا الرّحالة انطلاقًا ممّا شاهده وعاينه أثناء ترحاله وأسفاره. وغالبا ما يهدف الرّحالة إلى تدوين الأحداث التي مرّ بها والتي تكسبه خبرات جديدة، وكمًا معرفيًا عن الأماكن والبقاع التي زارها.

وعلى الرّغم من قدم أدب الرحلة في الحضارة العربية، فإنّه لم ينل حظًا وافرًا من الدّراسة، لكنه مع تقدّم العصور استطاع أن يبرز، ليصبح من بين أهم الفنون الأدبيّة التي لا يمكن الاستغناء عنها، لما يحتويه من قيم ومعارف كثيرة أفادت البشرية سواء على الصعيد الثقافي أو الاجتماعي أو الجغرافي، بالإضافة إلى القيم الجمالية التي يتمتع بها.

ولعلّ من أهم الرّحلات العربيّة، الرحلة الحجازية والتي كان أصحابها يتخذون سبيلهم إلى الحج مدوّنين ما يصادفونه من مشاهدات ومسالك، ومنها رحلة العبدري التي ارتأيت دراستها فنّيًا فوسمنا بحثنا بـ "**الجوانب الفنية والتوجيهات النقدية في الرحلة العبدرية**". ومرد اختياري لهذا الموضوع يرجع إلى أنّ فن الرحلة يصادف هوى في نفسي وإلى أنّه من أهم الأشكال النثرية المحبّبة إلي، كما أن رحلة العبدري لم تحض فيها الأقلام كثيرًا، ولم تنل حظها من التصفّح والدراسة في جانبيها الفنيّ والنقديّ.

لقد حاولت في هذه الدراسة الكشف عن الواقع المعرفي والتاريخي الذي ساد زمن ارتحال العبدري، وقد قمت من خلالها باستقراء وتحليل أهم الصور التي قدّمها لنا الرّحالة عن البلدان التي زارها وعاين عادات وتقاليد شعوبها عن كثب، وانطلاقًا من هذا الطرح حاولت الإجابة عن الإشكالية العامة:

ما هي أهم الجوانب الفنّية والتوجهات النقدية في الرّحلة العبدرية؟ وتحيلنا هذه الإشكالية إلى مجموعة من التساؤلات الفرعية أهمها:

– ما هي الرحّلة كجنس أدبي؟ وما أهميتها؟ وما أنواعها؟ وما هي ثوابت الرحلة الحجازية،.

لقد اقتضت مني طبيعة الموضوع وإشكالياته تقسيم الدراسة إلى فصلين، وقد استهللت هذا البحث بمدخل مفاهيمي تناولنا فيه مفهوم الرحلة ودواعيها وأهميتها وأنواعها، وأتبعته بالرحلة الحجازية وأهم جوانبها الفنّية، وقد كان الفصل الأول بعنوان "الجوانب الفنية في رحلة العبدري" عرضت فيه الجانب الوصفي في رحلة العبدري وتجليات السرد وتمثلات الهجاء والاقتباس والاستطراد، وكذا بعض التلوينات البديعية وصولاً إلى الجانب التاريخي والاقتصادي والاجتماعي، أما الفصل الثاني فجاء بعنوان "التوجهات النقدية في رحلة العبدري" تناولت فيه النقد التأثري الانطباعي وكذا الموضوعي والأدبي واللّغوي، إضافة إلى النقد البلاغي والنقد العروضي والنقد التفسيري، وصولاً إلى الملحق والذي تناولت فيه نبذة عن الرّحالة، وتسمية الرحلة، وأسبابها، ومدتها، وأهميتها، ومنهج التأليف والمصادر التي ساعدت العبدري في تأليف رحلته، وتناولت أيضًا أسلوبه في تأليف الرحلة، وذيلته بضامين هذه الرحلة، وكانت خاتمة هذا البحث حوصلة للنتائج المتحصل عليها.

ونظرًا لطبيعة الدراسة فقد ارتأيت أن المنهج التاريخي أوفق لدراسة فنيات الرحلة، باعتبار أنّ دراسة أي ظاهرة أدبية يتطلب الرجوع إلى بدايتها الأولى، ولما أن كانت الظاهرة التي قمنا بدراستها ضاربة في عمق التاريخ العربي، فلابدّ من الانطلاق من مرحلة نشأتها، وقد استعنت بالمنهج الوصفي وآلية التحليل في قراءة نموذج من نماذج أدب الرحلة ألا وهو رحلة العبدري واستخراج جوانبها الفنية وتوجهاتها النقدية.

ولا يمكن أن أنكر كثير من الجهود السابقة التي تناولت رحلة العبدري نقدًا وتنظيرًا، ولعلّ من أهم هذه الدراسات: "أثر أدب المغرب الإسلامي في الأدب العربي في المشرق" لـ "حسين رحمون" والذي عرض فيه الكثير من الجوانب النقدية في الرحلة العبدرية.

كما أني استندت إلى مجموعة من المصادر والمراجع، والتي كانت بمثابة العون والسند أذكر منها:

- الحسن الشاهدي، أدب الرحلة بالمغرب في العصر المريني.

- حسن نصار، أدب الرحلة.

- إسماعيل زردومي، فن الرحلة في الأدب المغربي.

- نوال الشوابكة، أدب الرحلات الأندلسية حتى نهاية القرن التاسع الهجري. وغيرها من الكتب التي رفدت مادة هذا البحث ويسرت سبله.

وبعدُ، هذه محاولتي كما استطعت النهوض بها، وإني لأرجو أن أكون قد بلغت الغاية المنشودة، وجلوت بعضًا من فنيات رحلة العبدري، ثم إني لا أنكر – مع شدة التحري والمراجعة– أنّ هناك أخطاءً وهَناتٍ سهوت عنها، ولا يفوتني في الختام أن أجزل الشكر لأستاذي المشرف "**سعيداني نور الدين**" على ما بذله من وقته لتصحيح فصول هذا العمل، والله الموفق للصواب، وصلّ اللّهم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم.

مدخل:

أدب الرّحلة المفهوم والمصطلح

أولا: مفهوم الرّحلة

ثانيا: أدب الرّحلة

ثالثا: الرّحلة الحجازية

رابعا: ثوابت الرحلة الحجازية

خامسا: الجوانب الفنية في الرّحلة الحجازية

أولا: مفهوم الرّحلة:

أ– لغة:

رحل عن المكان ــرحلاً ورحيلاً، وترْحَالاً، ورحلة: سَارَ ومَضَى، ورحلة: جَعَل عليه الرّحل، فهو مَرْحُول ورَحِيل. **الرّحلة:** الارتحال رحل وفي التنزيل العزيز "رحلة الشتاء والصيف" كتاب يصف فيه الرحّالة ما رأى.[1] الرّحلة نقلة من الزمان والمكان والنص الرحلي عبارة عن كتاب يوثق فيه الرحّالة مغامراتهم واصفين ومحدّدين المناطق التي زاروها.

ب– اصطلاحا:

تحدّد الرّحلة عند "أنور لوقا" بكونها تمزج بين التسجيلات الوصفية والإنسانية التعليمية بالحكاية والتسجيلية.[2] وهي النوع الأدبي الذي يفسح المجال أمام ترسيخ تقليد الموازنة بين خاصيتين وقيمتين وصورتين، حتى في الحالات التي تقتصر فيها الرّحلة على مجرد الوصف للعالم الجديد، لأنّ هذا الوصف يخضع عن وعي أو لاوعي، لمنظور وثقافة الواصف الذي يعمل على تحويل نوعي ومفهومي للمنظورات.[3] كون الرّحلة تحتوي على مضامين وأساليب متداخلة مع خطابات أخرى هو ما أدّى إلى صعوبة القبض على تعريف شامل يجمع في حده زخم الخصوصيات في النصوص الرحلية العربية.

ولعلّ هذه الصعوبة هي التي حدّدت ببعض معاجم المصطلحات التي تجنّبت صياغة تعريف لهذا الجنس، فمعجم مصطلحات الأدب لم يعرض فيه صاحبه "مجدي وهبة" للرحلة بأي وجه من الوجوه، واكتفى فقط بإشارة

---

[1]– إبراهيم مصطفى حامد عبد القادر، أحمد حسن الزيات، محمد علي النجار، المعجم الوسيط، الجزء الأول، من أول الهمزة إلى آخر الضاد، المكتبة الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع، استانبول، تركيا، د ت، ص 334.

[2]– سعيد علوش: الصورة العربية في الذاكرة الشرقية، ضمن مجلة "الثقافة الأجنبية (محور أدب الرحلات)، بغداد، العراق، السنة التاسعة، العدد الثالث، 1989، ص 15.

[3]– المرجع نفسه، ص 19.

مقتضبة للرحلة الخيالية[1]، أمّا "جبور عبد النور" فرغم حديثه عن الرّحلة لم يقدّم تعريفًا لها؛ بل اكتفى فقط بكلام عام، حيث يقول: «**تمثل الرّحلة في الأدب العربي منزلة رفيعة وأصبحت من الفنون الشائعة في معظم بلدان العالم**»[2]، ثم ينوه إلى أن الإشارة التي تتميز بها الرّحلة متأتية من الوصف الطريف للواقع والسرد الفنّي للمغامرة الإنسانية والعواطف المحركة للبشر ونابعة أيضًا من أنواع الشخصيات التي تبرزها للقارئ.[3]

فالرّحلة هي في كل حال من الأحوال، تجربة يحياها الرحّالة من أجل هدف فردي أو جماعي، لغاية تحقيق منفعة مادية أو دينية.

ثانيا: أدب الرّحلة

1- تعريف أدب الرّحلة:

هو لون أدبي ذو خصوصية تميزه عن غيره من الألوان الأدبية النثرية الأخرى، فهو وإن كان يتفق مع الرّواية في الإفادة من المعطيات الفنية ويشاكلها في السرد والوصف أحيانًا، فإنّه يختط له خطًا متميزًا، إذ يجمع إلى جانب ما سبق عناية برصد الواقع كما هو، دون اللجوء إلى الخيال إلاّ في إطار محاولة اختيار الأسلوب وتقديم الواقع في ثوب أدبي، وهو إلى ذلك يقدّم المعلومة في ثوب أدبي، حتى يمكن أن نعد الفائدة والمتعة، وجهين لعملة واحدة هي "أدب الرّحلة".

يعرف "مجدي وهبة" و"كامل مهندس" في كتابهما "أدب الرحلات" الرحلة بأنها مجموعة من الآثار التي تتناول انطباعات المؤلف عن رحلاته في بلاد مختلفة، وقد يتعرض فيها لوصف ما يراه من عادات، وسلوك وأخلاق، وتسجيل دقيق للمناظر الطبيعية التي يشاهدها، أو يسرد مراحل رحلته مرحلة بمرحلة أو يجمع بين كل هذا في آن واحد.[4]

---

[1]- مجدي وهبة: معجم مصطلحات الأدب، د ط، مكتبة لبنان، بيروت، لبنان، 1974، ص 65.

[2]- عبد النور جبور: المعجم الأدبي، ط2، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 1984، ص 121.

[3]- المرجع نفسه، ص 122.

[4]- مجدي وهبة، كامل مهندس، ص 16.

كما يعرّف "فواز الشعار" أدب الرحلة بأنه «أدب يقوم على السّرد يضمّنه الكاتب الرّحالة مشاهداته وانطباعاته في البلاد التي يزورها، وهي تقوم على وصف الطبيعة الجغرافية، أو نبذا عن التاريخ، أو عادات الناس، وتقاليدهم وأنماط عيشهم، وتفكيرهم، وهذه الأمور تكون في بعض الأحيان مرجعا وثائقيا هاما وموضوعا للدراسات المقارنة في مختلف المجالات الفكرية الأدبية والحياتية، ومن شرط أدب الرحلات دقّة الملاحظة، وتحرّي الحقيقة، وسهولة الرواية، وحسن التصرف»[1]، وهي من الصفات التي يجب أن تتوفر في الرحّالة.

ويمكننا القول إنّ أدب الرّحلة يعني الكتب الرّحلية أو المقالات المتصلة التي يسجّل فيها أصحابها مشاهداتهم وحوادثهم ورؤاهم الرحلية، على اختلافها وتنوعها، من خلال شعورهم بها ورؤيتهم لها في لغة أدبية موحية.

2- دواعي الرحلات:

هل يمكننا القول بأنّ تطوّر الإنسان مرتبط بترحله من مكان لآخر؟، وهل نستطيع الجزم بأنّه لولا تنقل الإنسان بين مختلف الأصقاع لما تغير تاريخ العالم؟ إنّهما تساؤلان يلحان على أذهاننا ونحن نرصد العوامل والمؤثرات التي تحث الإنسان على الارتحال أو الهجرة، وما من شك أنّ معرفة الآخر واستكشاف العالم المحيط بنا يشكّل أبرز عوامل هذا التنقل يبدو أنّ حب المغامرة وراء المجهول، أو تحقيق أهداف مادية ومثالية يضلان دافعين حاضرين في أغلب ما نقوم به من رحلات، ولكنّها أيْ الرحلات تكون في كلتا الحالتين، استجابة مباشرة لحوافز ودوافع محدودة تدعو بكل إلحاح للحركة والانتقال من مكان إلى مكان آخر، بمعنى أنّ من شأن دوافع معينة أن تدعو الإنسان دعوة صريحة وملحة لكي يخترق حاجز المسافة ولكي يتحمل مشقة السفر ومتاعب الاغتراب وصولاً إلى غاية مباشرة أو تحقيق هدف معين.[2]

[1]- فواز الشعار: ، إشراف: إميل يعقوب، ج1، دار الجيل، بيروت، لبنان، د ط، 1999، ص 97

[2]- صلاح الدين الشامي: الرّحلة العربية في المحيط الهندي ودورها في خدمة المعرفة، مجلة الفكر، الكويت، شتاء 1983، ص 13.

ولعلّ هذه الرحلات تغير من حياة الإنسان وتفكيره وإنتاجه، إلاّ أنّها ظاهرة طبيعية معتبرة له، فالحركة رمز للتحرر بمفهومه الوجداني أو الطبيعي والالتزام بمكان واحد رمز للجمود المادي والعقلي، إن الترحل شقاء لكنه شقاء في طياته متعة، وهذا ما يبدو جليًا في قول "باسكال" «**السبب الوحيد لشقاء الإنسان هو أنّه لا يعرف كيف يستقر هادئا في حجرته**»[1]

وبتأمل تاريخ العالم العربي والإسلامي نجد أنّ المغاربة كانوا أكثر تنقلاً وترحلاً من سائر العرب والمسلمين، وقد كانوا منذ القديم أهل سفر وترحال، ولعلّ الموقع الجغرافي ساعدهم على ذلك، حيث كان المغرب في أقصى بلاد الإسلام، ولهذا انتظمت رحلات المغاربة الأقطار المختلفة شرقًا وغربًا، بلاد إسلامية وغير إسلامية.[2]

ويمكن أن نضيف إلى لدافع الديني وموقع المغرب الدافع العلمي، فالرّحلة شرط من شروط إكمال المعارف ووسيلة للقاء الشيوخ، أما الدافع التجاري يرجع الفصل فيه إلى الموقع الجغرافي، فالمغرب ممر للطرق التجارية الكبرى.

فالدافع الديني يعد من أقوى الدوافع المحركة للرحلات المغاربية إلى المشرق العربي خصوصًا وأن ببلاد المغرب الإسلامي جوًا روحيًا خاصًا حتى أصبحت المقاييس الدينية متحكمة في كل نواحي الحياة.

وإذا ما حاولنا إجمال أهم الدوافع والبواعث التي حثت المغاربة على سلوك هذا النهج لأمكننا القول إنّها تتجلى فيما يلي:

1- أن وقوع المغرب في أقصى الغرب الإسلامي شكّل باعثًا قويًا للمغاربة قصد الترحّل نحو المشرق كي يؤكدّوا أنّهم عرب مشارقة.[3]

---

[1]- صلاح الدين الشامي: الرّحلة العربية في المحيط الهندي ودورها في خدمة المعرفة، ص 14.

[2]- الحسن الشاهدي: أدب الرّحلة بالمغرب في العصر المريني، ج1، ط2، منشورات عكاظ، المغرب، 2002، ص 48.

[3]- محمد سعيد الدغلي: الحياة الاجتماعية في الأندلس وأثرها في الأدب العربي والأدب الأندلسي، مجلة المناهل، ع95، 96، يوليو 2013، ص06.

2- إنّ الذهاب إلى الأماكن المقدسة بالحجاز وفلسطين وأداء مناسك الحج وزيارة مهد العربية والعروبة والنهل من منابع العلم المشرقية، مثّل أبرز دافع كان يحث المغاربة على النزوح نحو المشرق.

3- ممّا شجّع المغاربة على كثرة الترحّل نحو المشرق هو انعدام مايصطلح على تسميته بالحدود السياسية في عصرنا هذا، وتوافر وسائل المواصلات البرية والبحرية وتنظيمها الدقيق رغم ما كان يحدق بها من أحوال ومخاطر حتى ليظهر أن تواصل المشارقة مع المغاربة آنذاك كان أشد كثافة عما هو عليه الآن.[1]

3- أهمية الرحلات:

يمكننا أن نجمل أهمية الرحلات فيما يلي:

1- ترسيخ مجموعة من الانطباعات العامة والتصورات عن الشعوب الأخرى، سواء أكانت صادقة أو كاذبة، ذلك لأنّ الرحّالة يمثل نفسه ويعبّر عن رأيه الشخصي الخاص به.[2]

2- الكشف عن نصوص مجهولة لكتاب ورحالة عرب ومسلمين جابوا العالم ودونّوا يومياتهم وانطباعاتهم ونقلوا صورًا لما شاهدوه وخبروه في أقاليمه القريبة والبعيدة، لاسيما في القرنين الماضيين اللذين شهدا ولادة الاهتمام بالتجربة الغربية لدى النخب العربية المنفتحة.[3]

3- الكشف عن طبيعة الوعي بالأخر الذي تشكل عن طريق الرّحلة والأفكار التي تسربت عبر سطور الرحّالة والانتاجات التي ميزت نظرتهم إلى الدول والناس والأفكار.[4]

4- للرحلات قيمة علمية تكمن في تضمنها الكثير من المدونات والمعارف التاريخية والجغرافية وما تحتويه من تصوير للحياة الاجتماعية والسياسية والعمرانية والاقتصادية.[5]

---

[1]- عبد الحليم عويس: ابن حزم الأندلسي وجهوده في البحث التاريخي والحضاري، ط2، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، 1988، ص 39.

[2]- حسن نصار: أدب الرحلات، ط1، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، مصر، 1991، ص 08.

[3]- عبد الله محمد العياشي: الرّحلة العياشية، تحقيق: سعيد الفاضلي وسليمان القرشي، مج1، ط1، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي، 2006، ص 07.

[4]- محمد علي باشا: الرّحلة الشامية، تحرير: علي أحمد كنعان، سيكو للطباعة والنشر، ط1، بيروت، 2002، ص 09.

[5]- فواز الشعار: الموسوعة الثقافية العامة، ص 197.

5- كما تبرز قيمتها الأدبية في أن ما كتبه الرحّالة يأخذ طريقة إلى عالم الأدب لما فيه من صدق للتّجربة واللّهجة الفنية والتصوير الفنّي الحي، مما يجعله قريب في عالم القصة.[1]

4- أنواع الرحلات:

لقد أبدع المغاربة في كتاباتهم الرحلية وصفًا وتسجيلاً، فعرفوا أنواع كثيرة، حيث حاول الدارسون تصنيفها، وحصرها لكنّهم اختلفوا في تصنيفاتهم لها، هذا ويمكننا إدراج الكثير من هذه الأنواع تحت عنوان واحد شامل كالرحلات الرسمية التي تضم السياسية والسفارية، ويمكن التركيز على أكثر الأنواع شيوعًا كالرحلات العلمية، الدينية والرسمية والتجارية.[2]

أ- الرحلات الدينية:

يعد الحج الدافع الأساسي لدى المغاربة للقيام بالرحلات، لأنّهم كانوا أبعد الناس عن الحجاز من جهة الغرب، فكان شوقهم لأداء الفرائض وزيارة قبر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أعظم من غيرهم، وكانوا يتحملون في سبيل ذلك مشاق السفر، وأطلق على هذا النوع من الرحلات (الرحلات الحجازية) أو الحجية وفيه من التراكم الكيفي أو الكمي، بحيث يعد الصنف الأوّل من حيث الكتابة، فكان الحج من أهم العوامل التي دفعت بالمسلمين من كل فج عميق وعلى كل ضامر إلى الرّحلة والانتقال، فالحج كان ولا يزال، رحلة يتشوق إلى أدائها كافة الناس، وليس علماؤهم أو فقهاؤهم فقط.

أما النوع الثاني فهي الرحلات الزيارية والصوفية، وهذا النوع يكتسي طابعًا دينيًا وروحيًا، ويتمثل في زيارة العبّاد والزّهاد والوّعاظ، ويعتبر "أبو بكر الهروي" أشهر الراحلين المختصين في المزارات المتبرك بها، وقد دوّن تنقلاته تحت عنوان "الإشارات إلى معرفة الزيارات"، أمّا المغاربة فلهم مشاركة بدورهم في مجال السياحة الدينية والدعوة للتربية الروحية في مختلف البلدان العربية والإسلامية. [3]

---

[1]- ينظر: فواز الشعار: الموسوعة الثقافية العامة، ص 197.

[2]- محمد بن عثمان المكناسي: الإكسير في فكاك الأسير، تحقيق: محمد الفاسي، المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط، المغرب، د ت، من مقدمة الكتاب.

[3]- الحسن الشاهدي: أدب الرّحلة بالمغرب في العصر المريني، ج1، ص 39.

ب- الرحلات العلمية:

تعود نشأة الرّحلة في طلب العلم إلى بداية انتشار الإسلام، فمنذ عهد مبكر ارتحل المغاربة إلى المشرق لأهداف تعليمية[1]، فالرغبة في طلب العلم استجابة لدعوة الشارع إلى التعلم والعمل أبرز رحلة لطلب العلم في القرن الثاني الهجري ما نسبه "الربيع بن سليمان" إلى شيخه الإمام "محمد بن باديس الشافعي" المتوفى سنة 204هـ، وممّا رواه عنه قوله: «**وأقبلت أطوف العراق وأرض فارس وبلاد العجم وألقى الرجال، حتى كنت أنا ابن إحدى وعشرين سنة**»[2]

ومن رحلات الغرب الإسلامي ما اتسمت بالطابع العلمي التوثيقي، يمكن أن نلاحظ أنّ هذا في هذا في رحلات "**ابن رشيد والعبدري والتيجيبي والبلوي وابن خلدون والقلصادي**"[3]، وهذا ما نوّه إليه "عبد الرحمان بن خلدون" في مقدمته الشهيرة إذ قال: «**والرّحلة لابد منها في طلب العلم ولاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال**»[4]، فالهدف من الرّحلة هو التزوّد بالعلم ومقابلة الشيوخ والعلماء، ولقد كانت الرحلات في العصور الإسلامية معيارا للحكم على مستوى العلماء.

ج- الرحلات التجارية:

كانت التجارة منذ القديم أمرا يقتضي القيام برحلة وسفر بعيد من أجل تأمين سبل الحياة والكسب، ثم إنّ الواقع الاستراتيجي للبلاد العربية وكونها مركزًا لالتقاء الطرق التجارية بين القارات، شجع العرب على ممارسة الترحال من خلال ما يسمى برحلتي الشتاء والصيف.

---

[1]- إسماعيل زردومي: فن الرحلة في الأدب المغربي القديم، رسالة دكتوراه، إشراف: الدكتور عبد الله العيّ، جامعة باتنة، الجزائر، 2006/2005، ص19.

[2]- محمد ابن باديس الشافعي: ورحلة الشافعي، نشر: محي الدين الخطيب، د ط، المطبعة السلفية، القاهرة، مصر، 1350هـ، ص 18.

[3]- الحسن الشاهدي: أدب الرّحلة بالمغرب في العصر المريني، ج1، ص 80.

[4]- ابن خلدون عبد الرحمن: المقدمة، تحقيق: عبد السلام الشدادي، ط1، خزانة ابن خلدون، بيت الفنون والعلوم والآداب، الدار البيضاء، المغرب، 2005، ص 226.

أمّا المغاربة فقد قاموا برحلات من أجل التجارة وهم أولئك الرحّالة الذين جابوا البحار والمحيطات وسافروا وعبروا المجاري والشعاب ينتقلون وينقلون بضائعهم من بلد إلى آخر، وقد يقضون في متاجرتهم هذه سنين عدّة، وعندما ينتقلون إلى أوطانهم عائدين يأخذون في سرد الحكايات والأحاديث في أسلوب شيق عما صادفوه أو شاهدوه، ويحكون عن البحر وأهواله وعن أسماكه ومحاره، وعن جزائره وقاطنيها وطبائعهم وعاداتهم.

د- الرحلات السياحية:

لقد سعى بعض الرحّالة إلى البحث عن الحرية والاجتياز المكاني، حيث المهم هو السفر لا المكان الذي يرتحل إليه، فالدافع القابع وراء القيام بهذه الرّحلة هو التمتع بالحياة والوصول إلى مواطن الجمال في كل مكان، والرغبة في اكتشاف ما لم تراه العين، فيقوم الرحّالة بالسفر بمحض إدارته دون دافع نابع عن حدود الذات[1]، لذا جاءت بعض الرحلات لارتياد الأماكن وجوب الآفاق والترويح عن النفس، وقد امتدت الرّحلة لتتجاوز مضمون الحج والمهام الرسمية ليجول الرحّالة في البلاد التي طالتها يد الإسلام وشاع فيها الأمن والاستقرار في أكثر أنحائها، يريد أن يرى ويعرف أشياء كثيرة، لذا قد تجمع عدّة أسباب لرحلة ما، كما هو عند "ابن بطوطة" الذي زار أصقاعًا عديدة بدافع الرغبة التي تفرضها الذات وحب الاطلاع على الحضارات بثقافاتها المتنوعة، وقد قضى من عمره شطرًا كبيرًا من الترحال والسفر، فكانت رحلته حجازية في مضامينها.

هـ- الرحلات الرسمية:

يضم هذا النوع كلا من الرحلات التكليفية، والإدارية، والسفارية، وهي خاصة بدوافع عديدة منها: «**تفقد أمر الرعية أو تلبية طلب الحاكم في معاينة أماكن مجهولة أو بعيدة، أو الإتيان بأخبارها، فقد تكون في إطار التجسس والاستطلاع**»[2]

---

[1]- حسن نصار: أدب الرحلة، ص 05.

[2]- سميرة أنساعد: الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري، دراسة في النشأة والتطوّر والبنية، رسالة لنيل شهادة الدكتوراه، إشراف: الشريف مريبعي، جامعة الجزائر، 2007/2006، ص 20.

عدت السفارة الشكل الرسمي للرحلات، حيث يوكل بها الرحّالة من قبل الحاكم، وهي الرسالة التي يتنافس على أدائها من يتكلفون بها، إذ كانت تقترن في نفوسهم برفعة الدولة الإسلامية، وعلو شأنها، فالسفير ممثل لدولته وعنوان لرفعتها، وكانت السفارة لا تنقطع بين الدول العربية وما جاورها من الدول لأغراض ومقاصد متنوعة أما لتصفية الأمور السياسية أو لمقصد الصلح وقد تكون نتاج علاقة سياسية.[1]

فالرحلات التي أرسلت لتأدية مهمة رسمية أو سفارة، بين الدول المغربية والدول التي ترتبط معها بعلاقات وثيقة، وهي رحلة خاصة معمولة من قبل السلطة المركزية في الدولة، وقد خطط لها مسبقا ولها أهداف معلومة وأغراض محدّدة منذ البداية.

وقد جاب الرحّالة السفراء مشارق الأرض ومغاربها، وعند عودتهم نجد كتاباتهم مليئة بأوصاف مثيرة عن ترتيبات الدول وأنظمتها، ومراسم استقبالها السفراء، والوفود الرسمية الوافدة من أبهة ووجاهة وتقاليد خاصة تبرز قوتها ومكانتها، فضلاً عن أوصافهم للمسالك والطرق وعادات الناس.

ثالثا: الرّحلة الحجازية:

هي الرّحلة المكتوبة التي استهدفت تسجيل مراحل السفر إلى الحجاز والحديث عن معالم الحج وتأدية مناسكه، وقد عرفت التراث المغربي كتابة الرّحلة الحجازية مع العصر المريني.

والرّحلة الحجازية وإن تباعدت أشكالها، وتنوعت أحجامها ونصوصها، تبقى رهينة مجموعة من الثوابت، لتغليبها صفة الانتماء إلى صفة اللاإنتماء إلى صنف الرّحلة الحجازية، بميزاته وخصوصياته، ولتمثل بها تلك القواسم المشتركة التي تلتقي بها هذه المرحلة مع مثيلتها في الصنف، رغم تباعد زمنها وتباين اهتمامات الكتّاب بها، وتفاوت طريقة الكتابة والقدرة على الصياغة الأدبية فيها.

[1]- ينظر: نوال الشوابكة: أدب الرحلات الأندلسية المغربية حتى نهاية القرن التاسع الهجري، ط1، دار المأمون للنشر والتوزيع، عمان، 2001، ص40.

رابعا: ثوابت الرحلة الحجازية

كانت كل رحلة حجازية مكتوبة عن المغاربة على اختلاف أزمنتها، حيث تقوم على عدة ثوابت لعل أبرزها[1]:

– أنّها تقوم على هدف أساسي، هو الذهاب إلى الحجاز، والرّحلة إليه بقصد تأدية مناسك الحج، والقيام بزيارة قبر الرسول صلّى الله عليه وسلّم، وبذلك أخذت تسميتها بالرّحلة الحجازية.

– أنّها تحمل أوصاف رحلة بمثلها الحديث على مجموعة من المراحل يحدث بينها التنقل والسفر وتتولّد فيها ومعها مختلف المصاعب والمشاكل التي تصادف الراحلين عادة في البر والبحر وتنطلق من المغرب إلى الحجاز ذهابًا ومن الحجاز إلى المغرب إيابًا.

– أنّ الحديث عن المناسك وطريقة تأديتها يكون متشابها بين مختلف نصوص الرحلات الحجازية، لأنّ الإحرام والوقوف بعرفات والطواف والسعي بين الصفا والمروى هي الأركان التي قام عليها الحج مند شرعه الله للنّاس.

– إنّها تحاول أن تسجّل ما ينتاب الحاج من شوق وحنين إلى الحج وزيارته لقبر الرسول صلّى الله عليه وسلّم، وما يحمله من تسرّع في تحقيق رغبة الوصول وتطلّع إلى مواجهة معالم الحج والزيارة المقدسة.[2]

وتحتفظ في الأغلب ــرغم تفاوت قدرات كتاباتهاــ برصد آثار المواجهة الأولى لهذه المعالم عند الحاج وما تحثه من انفعال في نفسه وهو يشاهد المعالم لأوّل مرّة في واقعيتها.

– أنّها تقوم على الوصف وتسجيل ما يجري من أحداث الرّحلة وإن تفاوتت قدرات الوصف بين أصحابها وتباعدت قوّة الملاحظة والتسجيل بين كتابها، وغالبًا ما يتصرّف هذا الوصف إلى إبراز بعض الأحداث الأساسية التي يقوم عمل الرّحلة بها، ويرتكز عليها باعتبارها تشكل مجموعة من الثوابت تتركب منها هذه الأحداث، وتعطيها صفة التميز على أنّها أحداث رحلة ووقائعها، وتبدأ عملية الوصف بأخذ هذه الأحداث في أشكالها التالية:[3]

---

[1]– ينظر: مصطفى سالم عبد الله جلوص: أدب الرّحلات عند العرب، نشأته وتطوّره، ابن بطوطة أنموذجا، ط1، منشورات المركز الوطني للمحفوظات والدراسات التاريخية، سلسلة الدراسات التاريخية، الجماهيرية العربية الليبية، 2009، ص 217.

[2]– المرجع نفسه، ص 215.

[3]– ينظر: حسن نصار: أدب الرّحلات، ص 19.

- وصف الاستعداد للرحيل بما فيه وصف حالة الشوق للذهاب إلى الحج وخطوره على النفس وإلحاحه في قرار الرحيل والحسم فيه، فتبدأ عملية تيسير الأسباب بتهيئة الأزواد والبحث عن الرفقة وحماية واستعداد نفسي وبدني ثم يعقب كل هذا لحظة السفر وبداية الرّحلة وتوديع الأهل والأصحاب.
- وصف مراحل الرّحلة وذكر مميزاتها ويقوم فيها الحديث، إذا كان السفر في البر بذكر المسالك ووعورتها والطريق وأحوالها والأزواد وخصوصيتها، إن كان السفر عبر البحر يذكر المراسي التي يتم النزول بها والظروف التي تهيأت للوصول إليها والإقلاع منها.
- وصف الراحلين أثناء السفر وظروف السفر في البحر، والجماعة المسافرة على متنه، وإما في البر بذكر الركب وأميره، ونظامه وحالته في سير المركب المغربي، وإن كان بمفرده أو بصحبة المركب المصري الذي يتوافق معه دائمًا في الطريق من مصر إلى الحجاز ذهابًا ومن الحجاز إلى مصر إيابًا.
- وصف الحوادث الجارية أثناء الطريق مما يمكن أن يكون عاديًا في حياة جماعة من الناس من حدوث مرض أو وفاة، أو البحث عن تائه، وغير ذلك ومما يمكن أن تحمله الظروف الطارئة من غزارة أمطار وجريان أنهار واعتراض طريق وسرقة متاع وغير ذلك من العوائق التي يصعب معها سير الرّحلة ومتابعة قطع المراحل، هذا إذا كان السفر برًا وإن كان في البحر أيضًا.[1]

خامسا: الجوانب الفنية في الرّحلة الحجازية

1- الجانب الجغرافي:

ذكر معظم رحالة الحجاز الجانب الجغرافي للحجاز، ولاسيما مكة المكرمة والمدينة المنورة وبفضلهم وصفوا لنا بدقة وعينوا لنا حدود الحرم المكي والمدني، بالإضافة إلى ذلك المشاعر المقدسة في الحرمين الشريفين.

[1]- ينظر: حسن نصار: أدب الرّحلات، ص 19.

على غرار الأصطخري الذي يعدّ من الجغرافيين والرحالين تحدث كثيرًا عن مواقع المناطق التي زارها، فقد ذكر موقع مكة المكرمة حيث يقول: «**وهي مدينة فيها بين شعاب الجبال، وطول مكة من المعلاة إلى المسفلة نحو ميلين، وهو من حدا الجنوب إلى الشمال ومن أسفل جياد إلى ظهر قعيقعان نحو التلش، من هذا وأبنيتها حجارة، والمسجد في نحو الوسط منها والكعبة في وسط المسجد وباب الكعبة مرتفع عن الأرض نحو قامة وهو مصراع واحد، وأرض البيت مرتفعة عن الأرض مع الباب**»[1]

ومنى على طريق عرفه من مكة وبينهما وبين مكة ثلاثة أميال،ومنى شعب طوله نحو ميلين وعرضه يسير، وبها أبنية كثيرة لأهل كل بلد من بلدان الإسلام. ويستمر في الكلام، ثم يقول: «**والمزدلفة مبيت للحجاج ومجمع للصلاة، إذا صدروا من عرفات، وهو مكان بين بطن محسر والمأزمين، وأما بطن حسر فهو واد بين منى ومزدلفة وأمّا المأزمان فهو شعب بين جبلين يفضي آخره إلى بطن عرفة**»[2]

وتحدث الأصطخري عن مدن الحجاز الأخرى من حيث موقعها وبنيتها حيث يقول:

«**أمّا اليمامة فإنّ مدينتها دون مدينة الرسول، وهي أكثر تمرًا ونخلاً من المدينة ومن سائر الحجاز، ويستمر الكلام حتى يقول وليس الحجاز مدينة بعد مكة والمدينة أكبر من اليمامة، ويليها في الكبر وادي القرى وهي ذات نخيل كثيرة وعيون، والجار عرضه المدينة وهي على ثلاث مراحل من المدينة على بسط البحر، وهي أصغر من جدة، وجدة فرضه أهل مكة على مرحلتين منها من شط البحر، وهي عامرة كثيرة التجارة والأموال، ليس بالحجاز بعد مكة أكثر مالاً وتجارة منها وقوام تجارتها بالفرس**»[3]

وأما العبدري فنجده متحدثًا عن حدود مكة المكرمة والمدينة المنورة، حيث يقول عن مكة المكرمة:

---

[1]- الأصطخري: المسالك والممالك، دار الهلال، مصر، 1946، ص 08.

[2]- المرجع نفسه، ص 08.

[3]- المرجع نفسه، ص 10.

«بلدة كبيرة متصلة البنيان في بطن واد بين جبلين محيطة بها، لا يراها القاصد إليها حتى يشرف عليها، والجبال المحيطة بها ليست شامخة وبنيانها أخذ من الاستطالة مع الوادي ولا سور لها إلاّ أنّها حيزت من أعلى الوادي وأسفله بحائطين من صخور لا ملاط لها، قطعًا الوادي عرضًا حتى وصلاً بين الجبلين وهما على فسحة من البلد وأعلى الوادي ناحية المشرق وأسفله ناحية المغرب، ولكن دخول الحجاج من أعلاه حسبما تقدم، ولها ثلاثة أبواب باب المعلاة من أعلامها، وباب الشبكة من أسفلها والثالث باب اليمين من جهة الجنوب»[1]

ويتحد ابن بطوطة عن جغرافية مكة المكرمة قائلاً:

«هي مدينة كبيرة متصلة البنيان مستطيلة في بطن واد تحف به الجبال، فلا يراها قاصدها حتى يصل إليها، وتلك الجبال المطلة عليها ليست بمفرطة الشموخ من جبالها جبل أبي قيس، وهو من جهة الجنوب والشرق منها، وجبل قعيقعان وهو من جهة الغرب منها، وفي الشمال منها الجبل الأحمر، ومن جهة أبي قيس أجياد الأكبر وأجياد الأصغر»[2]

ويتحدث شكيب أرسلان عن جغرافية الطائف وتأسيسه، حيث يقول:

«والطائف في الإقليم الثاني وعرضها إحدى وعشرون درجة كما في معجم البلدان والأظهر في تسميتها بالطائف أنّه من الحائط المحدق بها، ومنه قول أبي طالب بن عبد المطلب "نحن بنينا طائفًا حصينًا"، قال ياقوت وهي مع هذا الاسم الفخم بليدة صغيرة على طرف واد، وهي محلتان إحداهما عن هذا الجانب يقال لها طائف ثقيف، والأخرى على هذا الجانب يقال لها الوهط»[3]

وفي خاتمة رحلته يتحدث عن موقع الطائف الجغرافي والعسكري ومكانه من البلاد العربية كلها، حين قال:

---

[1]- أبي عبد الله محمد بن محمد العبدري: رحلة العبدري، تحقيق: الدكتور علي إبراهيم الكردي، د ط، دار سعد الدين للطباعة والنشر، دمشق، 2005، ص 364- 365.

[2]- رحلة ابن بطوطة: تحقيقك حسين مؤنس، دار المعارف، مصر، 2003، ص 65.

[3]- شكيب أرسلان: الرحلة الحجازية، دار النوادر، بيروت، لبنان، ط1، 2007، ص 183.

«ألا أنّ مدينة الطائف مركز عظيم في بلاد العرب لأنّها كمكة من قبيل لازم وملزوم، ولأنّ إقليمها من أبدع الأقاليم وتمرا بها من أشهى التمرات، ولكونها متوسطة في الجزيرة، الحجاز محيط بها واليمن جنوبا ونجد والعراق شرقيها والمدينة المنورة والشام شمالها»[1]

2- الجانب الاقتصادي:

أ- الصناعة في الحجاز:

يوجد بعض الإشارات في كتب الرحّالة والتي تشير إلى وجود صناعات رائجة ومعروفة، كصناعة الحلي والمجوهرات ومصانع لمصنوعات الفضة لاستخدامها في الحرمين الشريفين للزينة، والمعادن المجهولة في أرض الحجاز. حيث أشار ابن بطوطة في رحلته إلى بعض المصانع في الحجاز، حيث قال:

«ثم وصلت إلى جدة، وهي بلدة قديمة على ساحل البحر يقال: أنّها من عمارة الفرس وبخارجها مصانع قديمة»[2]

وأشار شكيب أرسلان إلى مصانع الحلي في مكة المكرمة، حيث قال:

«وكانت فيها صناعة الحلي بالغة درجة الإتقان ولا يزال صاغة مكة وصنعاء واليمن وعشيرة نجد إلى يومنا هذا مشهورين بإتقان الصنعة»[3]

وتحدث شكيب أرسلان عن اقتصاد الحجاز والمصانع فيها والمعادن المشهورة في جزيرة العرب وخاصة في حران مكة المكرمة، وألحّ بقيام شركات إسلامية لاستخراج معادن الحجاز، وقد عين أماكن معدن الذهب في جزيرة العرب، فقال: **«فأما الأقاليم التي فيها معادن الذهب من جزيرة العرب فمنها الأقاليم العربية والذهب يوجد فيها بإسناد الجبال الواقعة بين الداخل والساحل أي السناد الجبال المتدلية إلى التهائم»**[4]

---

[1]- شكيب أرسلان: الرحلة الحجازية، ص 135.

[2]- رحلة ابن بطوطة، ص 113.

[3]- شكيب أرسلان: الرحلة الحجازية، ص 222.

[4]- المرجع نفسه، ص 223.

كما ذكر أماكن الغرانيتومعدن الذهب، حيث قال:

«**أولا في الشمال الغربي في الجزيرة بأرض مدين القديمة، ثانيًا في أرض الحجاز الضاربة إلى الجنوب**»[1]

وأشار إلى معادن الحجاز في عهد النبي، فقال:

وكانوا في زمن النبي يستخرجون منها بمجرّد رفع الحجارة، وممّا لاشكّ فيه أنّ الاستخراج منها وقع بعد المسيح بستمائة سنة، ومن معادن الحجاز معدن بحران على طريق السلطان من مكة إلى المدينة، وأعظم معدن في جزيرة العرب معدن جبل فاران، الذي كان لبني سليم وكان فيه ذهب وحديد.[2]

حيث نجد جميع هذه العوامل المذكورة في كتب الرّحلة الحجازية، وقد تحدثوا عن الزراعة والصناعة وخاصة التجارة، حيث أنّهم اهتموا بأسواق العرب كعكاظ والمجنة.

ب- الزراعة في الحجاز:

أشار الأصطخري في المسالك والممالك إلى كثرة حدائق النخيل والزراعة والمياه في المدينة المنورة، حيث قال:

«**وأمّا المدينة فهي اقل من نصف مكة، وهي في حرة سبخة الأرض، ولها نخيل كثيرة، ومياه نخيلهم وزروعهم من الآبار**»[3]

وتحدث ابن جبير عن أسباب ازدهار الزراعة في الأودية المحيطة في الحجاز وعن وجود جالية مغربية قامت باستصلاح الأراضي، حيث قال:

«**قد جلب الله إليها من المغاربة دوي البصارة بالفلاحة والزراعة فأحدثوا فيها بساتين ومزارع فكانوا أحد الأسباب في خصب هذه الجهات، وذلك بفضل الله عزّ وجلّ وكريم اعتنائه بحرمة الكريم وبلده**

[1]- شكيب أرسلان: الرحلة الحجازية، ص 224.

[2]- المرجع نفسه، ص 226.

[3]- ابن جبير: رحلة ابن جبير، دار صادر للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1852، ص 96.

الأمين، وتميزت الحجاز ببعض الغلات الزراعية كالتمر والرمان والعناب والتين والبطيخ، وغيرها حيث يقول ابن جبير على تلك الغلات الزراعية:

وأمّا الأرزاق والفواكه وسائر الطيبات فكنا نظن أنّ الأندلس اختصت من ذلك بحظ له المزية على سائر البلاد حتى حللنا بهذه البلاد المباركة، فألقيناها تغص بالنعم والفواكه: كالتين والعنب والرمان والخيار وجميع البقول كالباذنجان، واليقطين والسلجم وسائرها غير ذلك من الرياحين العبقة والمشمومات العطرة وأكثر هذه البقول لا يكاد ينقطع مع طول العام، وذلك من عجيب ما شاهدناه معا بطول تعداده وذكره، ولكل نوع من هذه الأنواع فضيلة موجودة في خاصة الذوق بفصل بها نوعها الموجود في سائر البلاد فالعجب من ذلك يطول»[1]

وقد تعجّب وتحيّر بطعم الفواكه ورائحتها، حيث يقول:

«ومن أعجب ما اختبرناه من فواكهها البطيخ والسفرجل وكل فواكهها عجب، لكن للبطيخ فيها خاصة من الفضل عجيبه، وذلك لأنّ رائحته من أعطر الروائح وأطيبها.

وحدّد ابن جبير المزارع والأراضي التي تأخذ منها الفواكه والخضروات، حيث يقول:

وهذه الفواكه تجلب إليها من الطائف، وهي على مسيرة ثلاث أيام منها، على الرفق والتؤدة ومن قرى حولها وأقرب هذه المواضع يعرف بأدم، هو من مكة على مسيرة يوم أو يزيد قليلاً، وهو من بطن الطائف ويحتوي على كثيرة من بطن مرّ، وهو على مسيرة يوم أو أقل ومن نخلة وهي على مثل هذه المسافة، ومن أودية بقرب من البلد كعين سليمان وسواها، قد جلب الله إليها المغاربة دوي البصارة

[1]- رحلة ابن جبير، ص 97.

بالفلاحة والزراعة فأحدثوا فيه بساتين ومزارع، فكانوا أحد الأسباب في خصب هذه الجهات، وذلك بفضل الله عزّ وجلّ وكريم اعتنائه بحرمه الكريم وبلده الأمين »[1]

وأشار ابن جبير إلى بساتين ومزارع منتشرة في مكة المكرمة وأنحائها، حيث يقول:

«تم نسير منها بمقدار ميل وتلقى الزاهر، وهو مبتني على جانبي الطريق يحتوي على دار وبساتين والجميع ملك أحد المكيين»[2]

«وبجهة المسفل، هو آخر البلد، مسجد منسوب لأبي بكر الصديق رضى الله عنه، يحفّ به بستان حسن فيه النخل والرمان وشجر العناب وعاينا فيه شجر الحناء»[3]

3- الجانب الديني:

لما نمعن النظر على الرحلات الحجازية، فنجد الرحّالين متفقين في سرد الجوانب الدينية والاقتصادية، والاجتماعية رغم الاختلاف في مناهجهم وأهدافهم في تلك الرحلات.

فمن المظاهر الدينية نجد معظم الرحّالين يتحدثون عن أداء مناسك الحج والعمرة وزيارة المسجد النبوي والأماكن المقدسة، وبعضهم تحدّثوا عن المذاهب الدينية كابن جبير في رحلته وابن خلدون في كتابه العبر.

تعدّد الأئمة في الحرم المكي نظرًا لتعدّد المذاهب في ذلك الوقت، حيث كان لكل مذهب من المذاهب الأربعة إمام ومكان خاص للإمامة، وقد ذكر ابن جبير في رحلته عدد من أئمة الحرم المكي، حيث يقول:

وللحرم أربعة أئمة سنة وإمام خامس لفرقة تسمى الزيدية، ويقول ابن جبير عن أفعال الفرقة الزيدية:

وهم يزيدون في الأذان حي على خير العمل اثر قول المؤذن حي على الفلاح، وهم روافض ساميون والله من وراء حسابهم وجزائهم ولا يجمعون مع الناس، إنّما يصلون ظهرًا أربعًا ويصلّون المغرب بعد فراغ الأئمة من صلاتها.

---

[1]- رحلة ابن جبير، ص 99.

[2]- المرجع نفسه، ص 88.

[3]- المرجع نفسه، ص 93.

وجود إمام الفرقة الزيدية استمر إلى وقت مجيء الشيبي إلى مكة في عام 1296م، وقد تحدث عن وجود إمام الزيدي في الحرم، وقد استنكر الزيدية، حيث يقول:

«**والله يرشدهم إلى مذهب أهل السنة والجماعة بمنه وكرمه**»[1]

ولكن اختفى وجوده في وقت ابن بطوطة الذي زار مكة المكرمة سنة 726 هـ وهو لم يذكر الفرقة الزيدية.

ولكن الإمام الشافعي كانت له الأكثرية والأولوية لأنّه معين من قبل الخليفة فهو الذي يقيم الخطبة ويبدأ بالصلاة وأهل مكة على مذهبه، وأشار ابن جبير في رحلته إلى هذه الحقيقة حيث يقول:

«**فأوّل الأئمة السنية الشافعي، رحمه الله وإنّما قدمنا ذكره لأنه المقدّم من الإمام العباسي وهو أوّل من يصلي، وصلاته خلف مقام إبراهيم صلّى الله عليه وسلم وعلى نبيا الكريم**»[2]

وقد بيّن ابن جبير طريقة الصلاة للأئمة في وقت واحد، حيث يقول:

«**إلاّ صلاة المغرب فإنّ الأربعة أئمة يصلونها في وقت واحد مجمعين لضيق وقتها، يبدأ مؤذّن الشافعي بالإقامة، ثم يقيم مؤذنو سائر الأئمة، وربّما دخل في هذه الصلاة على المصلين سهو وغفلة لإجتماع التكبير فيها من كل جهة، فربما ركع الشافعي أو الحنفي أو سلم أحدهم بغير سلام إمامه، فترى كل أذن مصخبة لصوت إمامها أو صوت مؤذنه مخافة السهو ومع هذا فيحدث السهو مع كثير من الناس**»[3]

وقد حدّد ابن جبير مكان الصلاة للأئمة الأربعة في الحرم، حيث يقول:

«**المالكي وهو يصلي قبالة الركن اليماني، وله محراب حجر يشبه محاريب الطرق الموضوعة فيها، الحنفي رحمه الله، وصلاته قبلة الميزاب تحت حطيم مصنوع له، وهو أعظم الأئمة وأفخرهم آلة من**

---

[1]- القاسم بن يوسف التيجيبي السبتي: مستفاد الرّحلة والاغتراب، تحقيق وإعداد: عبد الحفيظ منصور، الدار العربية للكتاب، تونس، ط1، 1975، ص 299.

[2]- رحلة ابن جبير، ص 85.

[3]- المرجع نفسه، ص 79.

الشمع وسواها بسبب أنّ الدولة الأعجمية كلها على مذهبه، فالاحتفال له كثير، وصلاته آخرًا، ثم الحنبلي رحمه الله، وصلاته مع صلاة المالكي في حين واحدة، موضع صلاته بقابل ما بين الحجر الأسود والركن اليماني، ويصلي الظهر والعصر قريبًا من الحنفي في البلاط الآخر من الغرب اليماني، والحنفي يصليها في البلاط الآخر من الغرب الجنوبي قباله محرابه ولا حطيم له، والشافعي بإزاء المقام حطيم حفيل»[1]

ولم يتطرّق أحد من الرحّالة إلى بداية وجود الأئمة الأربعة وتعدّدهم بالحرم الشريف، إلاّ الشيبي ذكر خيرًا عن بداية تعدّدهم، حيث قال في مستفاد الرّحلة:

«جاء نتيجة تغلب الديلمي على العراق، فتفرق العلماء من العراق ومن الحجاز إلى غيرها من البلدان، ففي الناس بالحرم الشرف أشتاتًا بغير إمام لم يقيم لهم الصلاة ففزع أهل كل مذهب في الحرم إلى رجل منهم فقدّموه ليصلّي بهم جماعة فمضى العمل على ذلك من يومئذ»[2]

وقد أشار ابن جبير إلى قوّة المذهب الشافعي وقوّة المذهب المالكي، حيث يقول:

«والمالكي أقلّهم شبهًا وأضعفهم حالاً لأنّ مذهبه في هذه البلاد غريب، والجمهور على مذهب الشافعي وعليه علماء البلاد وفقهاؤهم، إلاّ الإسكندرية وأكثر أهلها مالكيون وبها الفقيه ابن عوف، وهو شيخ كبير من أهل العلم، بقية الأئمة المالكية»[3]

4- الجوانب الاجتماعية:

تتكون الحياة الاجتماعية من عدة مظاهر منها طبقات المجتمع والاحتفالات، والعادات والتقاليد والملابس، والمواكب، والأطعمة والأشربة إلى غير ذلك من المظاهر، سنحاول من خلال عملنا هذا أن نسجل المظاهر من الرحلات الحجازية، نذكر منها:

---

[1]- رحلة ابن جبير، ص 78.

[2]- القاسم بن يوسف التيجيبي السبتي: مستفاد الرحلة والاغتراب، ص 296.

[3]- رحلة ابن جبير، ص 80.

أ- طبقة حكام الحجاز:

تولى حكم الحجاز الأشراف من درية الحسين بن علي في مكة المكرمة ومن درية الحسين بن علي في المدينة المنورة واتسم حكمهم بطابع الإمارة فقط.

وقد أشار ابن جبير في رحلته إلى حكام مكة المكرمة، حيث يقول:

«وفي عشي يوم الثلاثاء الحادي عشر من الشهر المذكور وهو الثاني من شهر أغشت، كان انفصالها من جدة بعد أن ضمن الحجاج بعضهم بعضًا، وكبتت أسماؤهم في زمام عند قائد جدة علي بن مفوق حسبما نقل إليه ذلك من سلطانه صاحب مكة مكثر بن عيسى المذكور وهذا الرجل مكنز من درية الحسن بن علي، رضوان الله عليهما، لكنّه ممّن يعمل غير صالح، فليس من أهل سلفه الكريم، رضي الله عنهم»[1]

ونلاحظ في رحلة ابن بطوطة أيضًا من حكام مكة المكرمة الأشراف من نسل الشريف أبي نمي عطيفة ورميثة ومقرهما مكة المكرمة، وقد ذكر عن دارهما في مكة المكرمة وتميّز رميثة بحسن السيرة في أهل مكة المكرمة، حيث قال:

«وكانت إمارة مكة في عهد دخولي إليها للشريفين الآجلين الأخوين، أسد الدين رميثة وسيف الدين عطيفة ابنيّ الأمير أبي نمي بن أبي سعد بن علي بن قتادة الحسين، ورميثة أكبرهما سنًا، ولكنّه كان يقدم اسم عطيفة في الدعاء له بمكة، لعدالته، ولرميثة من الأولاد أحمد وعجلان، وهو أمير مكة في هذا العهد، وتقيةُ وسند وأم قاسم، ولعطيفة من الأولاد محمد ومبارك ومسعود، ودار عطيفة عن يمين المروة، ودار أخيه رميثة عند باب بني شيبة وتضرب الطبول على باب كل واحد منهما عند صلاة المغرب من كل يوم»[2]

---

[1]- رحلة ابن جبير، ص 57.

[2]- رحلة ابن بطوطة، ص 66.

وقد تحدث ابن بطوطة عن حكام المدينة المنورة وأشار إلى كبش بن منصور بن جماز، حيث قال:

«**كان أمير المدينة كبيش بن منصور بن جماز، وكان قد قتل عمه مقبلاً، ويقال أنه توضأ بدمه، ثم إنّ كبيشًا خرج سنة سبعة وعشرين إلى الفلاة في شدّة الحر ومعه أصحابه، فأدركتهم القافلة في بعض الأيام، فتفرقوا تحت ظلال الأشجار فما راعهم إلاّ وأبناء مقبل في جماعة من عبيدهم ينادون، بالثاوات مقبل، فقتلوا كبيش بن منصور صبرًا، ولعقوا دمه، وتولى بعده أخوه طفيل بن منصور، الذي ذكرناه أنّه نفى أبا العباس الفاسي**»[1]

وأعتمد الأشراف على حرس يسمون بالحرابة ووصفوا باللصوص لسلبهم أمتعة الحجاج بحيل وطرق عجيبة، حيث قال ابن جبير عن هؤلاء الحرس: «**ومن صنع الله الجميل وفضله العميم علينا أنّا وصلنا إلى هذه البلدة المكرمة، فألقينا كل من بها من الحجاج المجاورين ممّن قدم عهده فيها وطال مقامه بها يتحدث عن جهة العجب بأمنها من الحرابة المتلصصين فيها على الحجاج، المتخلسين ما بأيديهم والذين كانوا آفة الحرم الشريف، لا يغفل أحد عن متاعه طرفة عين إلاّ اختلس من بينه أو من وسطه بحيل عجيبة ولطافة غريبة، فما منهم إلاّ أخد يد القميص، فكفى الله في هذا العام شرّهم إلاّ القليل، وأظهر أمير البلاد التشديد عليهم فتوقف شرّهم**»[2]

وتحدث شكيب أرسلان عن أمراء مكة بالتفصيل، حيث قال:

«**وهؤلاء الذين منهم الأمير عبد المطلب الذي ولّى إمارة مكة ثلاث مرات، والذي حفيده الأمير علي بن حيدر باشا وقد ولّته الدولة الإمارة في أيام الحرب بعد أن ثار عليها الشريف بن علي ولقب ملكا**»[3]، واستمر الكلام عن أمراء مكة إلى أن قال:

---

[1]- رحلة ابن جبير، ص 100.

[2]- المرجع نفسه، ص 100.

[3]- شكيب أرسلان: الرّحلة الحجازية، ص 125.

«وهكذا كانت إمارة الحجاز منحصرة في دوي زيد إلى أن استولى الوهابيون على الحجاز، وعجزت الدولة عن إخراجهم منه فرمتهم بمحمد بن علي والي مصر الذي حرض عليهم الجيوش ولبث يقاتلهم نحو عشر سنوات إلى أن أخرجهم من الحجاز، فكان اقتراحه على الدولة إخراج إمارة الحجاز من دوي زيد وتوليته أمير من غيرهم من الأشراف»[1]

نجد أيضًا محمد حسين هيكل متحدثًا عن أبي مسعود، حيث قال:

«كنت أسمع اسم ابن المسعود، عاهل العرب منذ زمان طويل، فلما بدأ يغزو الأشراف، وعلى رأسهم الحسين بن علي ملك الحجاز، كنت أتتبع أنباء النزاع بين الملكين العربيين دون أن أقف طويلاً عندها، فلما انتهى الأمر إلى فرار الحسين وإلى قيام علي ابنه مقامه، ثم إلى استقرار السلطان في الحجاز لابن مسعود، بدأ الحديث عن هذا المفتاح النجدي لبلاد العرب يتردّد في صحف الغرب والشرق، وقد لقيت إذا ذلك غير واحد من الصحافيين المشهود لهم بالاتزان وبدقة الحكم على الأشياء، والأشخاص، فما كان أشد عجبي حين سمعت من أحدهم "فون فيزل" الألماني المعروف مبالغة في الثناء على ابن المسعود إلى حد نعته آياه...»[2]

ب– طبقة العلماء في الرحلات الحجازية:

أعطى الراحلون أهمية كبيرة للعلماء أثناء رحلاتهم، وقد تحدث الرحالون عن مجالسهم ودروسهم وخدماتهم لإزالة البدع والمنكرات والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وممن تحدث عن علماء الحجاز نجد ابن بطوطة قائلاً في هذا الشأن:

«ومنهم الصالح خضر العجمي، كثير الصوم والتلاوة، والطواف، والبذخ الصالح برهان الدين العجمي الواعظ، كان ينصب له كرسي تجاه الكعبة الشريفة فيعظ الناس، ويذكرهم بلسان فصيح وقلب

[1]– شكيب أرسلان: الرّحلة الحجازية، ص 126.

[2]– حسين هيكل: في منزل الوحي، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط8، 1119هـ، ص147.

خاشع يأخذ بمجامع القلوب، والصالح المجود برهان الدين إبراهيم المصري مقرئ مجيد سامن بالسدرة، ويقصده أهل مصر والشام بصدقاتهم، ويعلم الأيتام كتاب الله تعالى، ويقوم بمؤنهم ويكسوهم»[1]

وفي مكان آخر ذكر عدّة الفقهاء والعلماء، حيث قال:

«**ومنهم الفقيه الصالح ابن زين الدين الطبري، شقيق نجم الدين المذكور من أهل الفضل والإحسان للمجاورين ومنهم الفقيه المبارك محمد بن فهد القرشي من فضلاء مكة، وكان ينوب عن القاضي نجم الدين بعد وفاته الفقيه محمد بن عثمان الحنبلي، ومنهم العدل الصالح محمد بن البرهان زاهد مبتلي بالوسواس، رأيته يوما يتوضأ من بركة المدرسة المظفرية فيغسل ويكرّر، ولما مسح رأسه أعاد مسحه مرات، ثم لم يقنعه ذلك فغطس رأسه في البركة، وكان إذا أراد الصلاة ربما صلّى الإمام الشافعي، وهو يقول: نويت، نويت، فيصلّي من غيره وكان كثير الطواف والاعتمار»**[2]

وذكر شكيب أرسلان عدّة الفقهاء والمحدثين في الطائف، حيث قال:

«**وروي ابن سعد في الطبقات أنّه كان بالطائف بعد هؤلاء من الفقهاء والمحدثين عمرو بن الرشيد بن سويد الثقفي وعاصم بن سفيان الثقفي وأبو هندية الذي روي عنه سعيد بن المسيب وعمرو بن أوس الثقفي وعبد الرحمن بن عبد الله بن عثمان بن عبد الله بن ثقيف»**[3]

ج – طبقة المهن في رحلات الحجاز:

أشار بعض الراحلين إلى أصحاب المهن وأعمالهم في رحلاتهم كالخبازين والخياطين وصناع الحلوى والأغوات والنساخ وممّن أشار إليهم ابن جبير وابن بطوطة، حيث قال ابن جبير:

---

[1]– رحلة ابن بطوطة، ص 168.

[2]– المرجع نفسه، ص 168.

[3]– شكيب أرسلان: الرّحلة الحجازية، ص 159.

«ويتصل بجدار هذا البلاط كله مصاطب تحت قسي حنايا يجلس فيها الناسخون والمقرئون وبعض أهل صنعة الخياطة»[1]

وقال عن مهن في مدينة جدة:

«ويستخدمون أنفسهم في كل مهنة من المهن: من إكراء جمال أن كانت لهم، أو بيع لبن أو ماء غير ذلك من تمر يلتقطونه أو حطب يحتطبونه»[2]

وقال عن البزازين والعطارين:

«وما للبلدة سوق منظمة سواها إلاّ البزازين والعطارين فهم عند باب بني شيبة تحت السوق المذكورة وبمقربة تكاد تتصل بها»[3]

وقال ابن بطوطة عنهم:

«ويتصل بجدار هذا البلاط مساطب تحت قسي"حنايا" يجلس بها المقرئون والناسخون والخياطون»[4]

وقال أيضًا عن البزازين والعطارين:

«وبين الصفا والمروة ميل فيه سوق عظيمة، يباع فيها الحبوب واللحم والتمر والسمن وسواها من الفواكه، والساعون بين الصفا والمروة لا يكادون يخلصون لازدحام الناس على حوانيت الباعة وليس بمكة سوق منتظمة سوى هذه إلاّ البزازين والعطارون عند باب شيبة وبين الصفاء والمروة دار العباس رضي الله عنه»[5]

---

[1]- رحلة ابن جبير، ص 68.

[2]- المرجع نفسه، ص 69.

[3]- المرجع نفسه، ص 85.

[4]- رحلة ابن بطوطة، ص 59.

[5]- المرجع نفسه، ص 63.

د- العادات والتقاليد لأهل الحجاز:

ومن العادات والتقاليد لأهل الحجاز، ضرب الطبول في أوقات الصلاة وابتداء موسم الحج، ويخبرنا ابن جبير عن هذه العادات حيث قال:

«**وفي تلك الليلة ملئ المسجد الحرام كلّه سرًا فتلألأ نورًا، وعند ثبوت رؤية الهلال عند الأمير أمر بضرب الطبول والدبادب والبوقات إشعارًا بأنّها ليلة الموسم**»[1]

وقال أيضًا في عادات أهل الحجاز:

«**ولأهل هذه الجهات المشرقية كلها سيرة حسنة، عند مستهل كل شهر من شهور العام يتصافحون ويهنئ بعضهم بعضًا، ويتغافرون ويدعو بعضهم لبعض، كفعلهم في الأعياد هكذا دائمًا**»[2]

ومن عادات أهل مكة إخراج مصحف مكتوب بخط زيد بن ثابت، أثناء القحط وعدم الغيث ويضعونه على العتبة الشريفة، وعن هذه العادة تحدث ابن جبير وابن بطوطة، حيث قال ابن بطوطة في رحلته:

«**فيه مصحف كريم بخط زيد بن ثابت رضي الله عنه، منتسخ سنة ثماني عشر من وفاة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وأهل مكة إذا أصابهم قحط أو شدّة أخرجوا هذا المصحف الشريف، وفتحوا باب الكعبة ووضعوه على العتبة الشريفة ووضعوه في مقام إبراهيم عليه السلام واجتمع الناس كاشفين رؤوسهم، داعين متوسلين بالمصحف العزيز والمقام الشريف، فلا ينفضون إلاّ وقد تداركهم الله برحمته وتغمدهم بلطفه**»[3]

وتحدث ابن جبير عن عادة أهل مكة، لإعداد مياه زمزم للشرب في الحرم، حيث قال:

---

[1]- رحلة ابن جبير، ص 108.

[2]- المرجع نفسه، ص 101.

[3]- رحلة ابن بطوطة، ص 62.

«ويخرج مع الليل لسقي الحجاج في قلال يسمونها الدوارق، كل دورق منها دو مقبض واحد، وتنور بئر زمزم من رخام قد ألصق بعضه ببعض إلصاقًا لا تحليه إلاّ الأيام وأفرغ في أثنائها الحرصاص»[1]

وتحدث ابن بطوطة عن العادات الحسنة لأهل مكة واصفًا أيّاها بأنّها من الأفعال الجميلة والمكارم التامة والأخلاق الحسنة والإيثار إلى الضعفاء والمنقطعين وحسن الجوار للغرباء، فقال عن مكارمهم:

«ولأهل مكة الأفعال الجميلة والمكارم التامة والأخلاق الحسنة والإيثار إلى الضعفاء والمنقطعين وحسن الجوار للغرباء، ومن مكارمهم أنّهم متى صنع أحدهم وليمة يبدأ فيها بإطعام الفقراء المنقطعين المجاورين، ويستدعيهم بتلطّف ورفق وحسن خلق، ثم يطعمهم، وأكثر المساكين المنقطعين يكونون بالأفران، حيث يطبخ الناس أخبازهم، فإذا طبخ أحدهم خبزه واحتمله إلى منزله فيتبعه المساكين فيعطي كل واحد منهم ما قسم له»[2]

وأشار العبدري إلى اعتقاداتهم في زيادة ماء زمزم في يوم الجمعة قائلاً:

«وتراهم في قبة زمزم يتقاتلون على الماء، ويأخذ احدهم الدلو فيصبه على نفسه بثيابه، حتى لوثوا الموضع، ويتقولون في ذلك أشياء ما لها وجود مثل زيادة الماء في ليلة الجمعة، وهو أمر مشهور عندهم»[3]

هـ- الأعياد والاحتفالات لأهل الحجاز:

تحدث ابن جبير عن عدة أعياد واحتفالات لدى الحجازيين قائلاً:

«وفي أثناء ذلك يلاقي الرجال بعضهم بعضًا فيتصافحون ويتهادون الدعاء والتغافر بينهم، والنساء كذلك، والكل منهم قد لبس أفخر ثيابه واحتفل احتفال أهل البلاد للأعياد، وأمّا أهل البلد الأمين فهذا

[1]- رحلة ابن جبير، ص 66.
[2]- رحلة ابن بطوطة، ص 67.
[3]- رحلة العبدري، ص 371.

الموسم عيدهم، له يعبؤون وله يحتفلون، وفي المباهاة فيه يتنافسون وله يعظمون، وفيه تنفق أسواقهم وصناعئهم، يقدمون النظر في ذلك والاستعداد له بأشهر»[1]

كما نجد ابن جبير في حديثه عن أعياد الحجازيين واحتفالاتهم، متحدثًا عن حفلة للنساء في التاسع والعشرين من كل شهر، حيث قال:

«والعمرة في هذا الشهر كله متصلة ليلاً ونهارً، رجالاً ونساءً، لكن المجتمع كله إنّما كان في الليلة الأولى، وهي ليلة المسوم عندهم، والبيت الكريم يفتح في كل يوم من هذا الشهر المبارك،فإذا كان يوم التاسع ذلك اليوم احتفال عظيم، فهو عندهم يوم زينتهم المشهور المستعد له»[2]

[1]- رحلة ابن جبير، ص 110.

[2]- المرجع نفسه، ص 113.

الفصل الأول:

الجوانب الفنية في رحلة العبدري

أولا: حول مفهوم الوصف

ثانيا: تمثلات الهجاء

ثالثا: تجليات السرد

رابعا: الاقتباس

خامسا: الاستطراد

سادسا: تلوينات بديعية

سابعا: الجانب التاريخي

ثامنا: الجانب الاقتصادي

تاسعا: الجانب الاجتماعي

إن فن الرّحلة يتعرض لمختلف نواحي الحياة، لذلك فمن الطبيعي أن نجد هذا الجنس الأدبي المذكور غنيًا ومتنوعًا على مستوى السياق والمضمون، فعلى مستوى السياق يحوي معارف تاريخية وجغرافية ودينية ...إلخ، وعلى مستوى المضمون نجد فيه السّرد والوصف والهجاء إلى غير ذلك من الأشكال المختلفة، ولعلّ من أبرز الأشكال الفنّية التي تحتوي عليها الرّحلة، نجد الوصف فالرحّالة وهو يطوي الأرض أثناء رحلته يغطي في نفس الوقت ملاحظة مظاهر مختلفة في الحياة، يشاهدها أو يسمعها، هذا وبما أنّ الوصف من الأدوات الجمالية في النّص الرحلي، يعتمد عليها الرحّالة، وقبل الخوض في دراسته لابدّ من الوقوف أولاً على مفهومه، وبعضًا من وظائفه؟

أولا: حول مفهوم الوصف:

1- مفهوم الوصف:

تضاربت آراء الدارسين حول مفهوم المصطلح منذ القديم، إذ عرّفه القدماء على أنّه «**تصوير الظواهر الطبيعية بصورة واضحة التقاسم وتلوين الآثار الإنسانية بألوان كاشفة عن الجمال**»[1]؛ فالوصف قديمًا هو نقل الأشياء بصورة حقيقية وتعبير عن أحولها وهيئتها كما هي في العالم الخارجي.

عرّف "قدامة بن جعفر" الوصف بقوله: «**الوصف إنّما هو ذكر الشيء بما فيه من الأحوال والهيئات، ولمّا كان أكثر وصف الشعراء، إنّما يقع على الأشياء المركّبة من ضروب المعاني**»[2]؛ أي إبراز حالة الأشياء والأحوال ووصفها وصفًا دقيقًا.

[1]- عبد العظيم علي قناوي: الوصف في الشعر العربي، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ج1، د ط، 1949، ص 42.

[2]- أبو الفرج قدامة بن جعفر: نقد الشعر، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، د ط، د ت، ص 130.

كما عبّر "أبو هلال العسكري" عن وجهة نظر مشابهة بقوله: «**ينبغي أن نعرف أن أجود ما يستوعب أكثر معاني الموصوف حتى كأنّه يصوّر الموصوف لك فتراه نصب عينيك**»[1]؛ أي إنّ الوصف هو الإلمام بصفات الموصوف بصورة شاملة تجعل القارئ أو المستمع وكأنّه يراه أمامه.

2- وظائف الوصف في أدب الرّحلة:

إنّ كل عمل أدبي حينما يشد القارئ إليه يكون عن طريق عنصر أو شخصية، وإذا ما وقف الكاتب أوقف القارئ عند هذا العنصر، فلابد له أن يتساءل حول وظيفة هذا العنصر.

وإذا ما نظرنا من زاوية الوصف نجد له عدّة وظائف باختلاف تسميتها وتعدّدها عند دارسيها ومن بين هذه الوظائف.

أ- الوظيفة التفسيرية:

وتسمّى أيضًا بالوظيفة التوضيحية، إذ تختص بتفسير وصف الرّحلة، حيث يكون للوصف وظيفة رمزية دالة على معنى معين في إطار سياق الحكي.[2]

بمعنى أنّ الوظيفة التفسيرية يعتمد عليها الرحّالة في تفسير ما يراه ويشاهده في إطار سياق معيّن، وهذا ما يضفي على النّص خصوصيته.

ب- الوظيفة الجمالية:

هي بمثابة عمل تزييني[3]، يكون استراحة بين الأحداث غير مرتبطة بالحكي وغير مرتبط بتطوّر الأحداث، وإنّما تعبير منمق ومزيّن يضفي على العمل الأدبي جمالاً فنّيًا ينقل المتلقّي أو السّامع إلى عالم آخر يتوق إلى رؤيته.

---

[1]- محمد نجيب العمامي: الوصف في النّص السّردي بين النظرية والإجراء، دار محمد علي للنشر، صفاقس، تونس، ط1، 2010، ص 14.

[2]- فوزية قفصي: شعرية الوصف في أدب الرحلة، رحلة ابن بطوطة أنموذجا، مجلة التواصل، العدد 37، جامعة باجي مختار، عنابة، الجزائر، مارس 2013، ص 159

[3]- ينظر: المرجع نفسه، ص 159.

ج- الوظيفة السردية:

يعتبر السّرد المكوّن الرئيسي للخطاب الرّحلي عمومًا، فالكتابة السّردية تصف الأحداث والأفعال التي قامت بها الذات الكاتبة، والتي تنتقل من نقطة الانطلاق وتعود إليها، حين ينطلق الرّاوي بحركة السّرد في تنظيم سردي يتقدّم إلى الأمام حتى نهاية خطاب الرّحلة.[1]

د- الوظيفة التصويرية:

تسمّى أيضًا بالوظيفة التمثيلية، حيث يتم تصوير الواقع تصويرًا فوتوغرافيًا، فالرحّالة حيث يصف شخصية أو مكانًا أو نباتًا أو حيوانًا، يجعل القارئ يتصوّر الموصوف وكأنّه ماثل أمامه، فمثلما يستعمل الرّسام الريشة والمصوّر عدسة الكاميرا ليصوّر ما يشاهد، يستعمل الرحّالة الكلمات والأوصاف والتنبيهات ليصوّر لنا ما يراه، لـ «**يكون الوصف وهو يكتسب صفة التصويرية بمثابة العين التي يطل منها المتلقّي على عالم النّص**»[2]

3- الجانب الوصفي في رحلة العبدري:

تعدّد الوصف في رحلة "العبدري" متخذًا أشكال مختلفة باختلاف الشيء الموصوف من خلال المشاهد التي عاينها أو سمع منها، من مدن ومساجد ومرافق عامة، وغير ذلك من الأشياء والتي يمكن تصنيفها حسب ما يلي:

أ- وصف مكة:

ويصل العبدري إلى مكة البلد الذي ظل يلهج بذكره وشد الرّحال من أجل الوصول إليه فيحس بالغبطة والسرور، وقد عبّر عن ذلك بقوله: «**ثم نزل الرّكب بالمحصب يوم الاثنين سابع ذي الحجة وبات به ليلة ثم رحل من الغد؛ وهو يوم التروية إلى منى وفي يوم التروية دخلت إلى البلد الأمين؛ مقر المجد الصميم؛**

[1]- عبد العليم محمد إسماعيل علي: تقنيات السّرد أساس أدبية الرّحالة، جائزة الطيب صالح العالمية للإبداع الكتابي، الدورة الثامنة، 2018، ص14.
[2]- الحبيب مونسي: شعرية المشهد في الإبداع الأدبي، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، 2003، ص 116.

والشرف المكين فخر بقاع الأرض كلها على مر السنين؛ فأقسم بالله أعظم يمين قسمًا لا يكذب ولا يمين ما حرم سكناه إلا ذو حظ غبين»[1]

يصف العبدري مكة المكرمة بأنّها أجمل بقاع الأرض أمنًا وسلامًا، وقد عبّر عن ذلك في قصيدتين مهّد بهما لوصف هذا البلد الذي ظل تذكره على مدى الأيام يذكي فيه نار الشوق والحنين؛ ويحي في نفسه أمل العودة إليه للتملي من جمال المكان وقدسية هذه الرّباع؛ فلقد قال في القصيدة الأولى:

أسعداني بذكره يا خليلي فلقد يسعد الخليــل الخليل

وعداني ومــنياني وصـولا فقصارى منى الفؤاد الوصول

يا لربع غدا به ربع صبري وهو مستعجم الرسوم محيل[2]

ويعبّر عن أمنيته التي يرجو باستمرار تحقيقها؛ وهي العودة إلى هذه البقاع من جديد؛ فلقد جاء في القصيدة الثانية قوله:

ألا ليت شعري هل يساعدني الوقت وتدني لي الأيام مـــا نحوه تقت؟

وهل لي إلى تلك المعاهد عـــودة بسكنى مغان قربها كل ما اشتقت؟[3]

فوصفه للبلد الأمين يشفي غليل المتشوّق إلى زيارتها؛ فقد أحسّ وكأنّه قد خلق خلقا جديد؛ بمجرّد دخوله إلى مكة التي أنسته المعاناة والآلام التي لقيتها من متاعب السّفر؛ فيلتفت وهو بمكة إلى معالمها الأثرية والعمرانية، فيصف المسجد الحرام قائلاً: «**وأما المسجد الحرام زاده الله تشريفًا فهو وسط البلد كبير متّسع يكون طوله أزيد من أربع مئة ذراع؛ كما ذكر الأزرقي رحمه الله وطوله من الشرق إلى الغرب؛ وهو قريب من التربيع يخيّل للناظر إليه أنّه مربّع مفروش برمل أبيض جميل المنظر جدًا محكم العمل عجيب الصنعة؛**

---

[1]- رحلة العبدري، ص358.

[2]- رحلة العبدري، ص 359.

[3]- رحلة العبدري، ص 360.

كثير الإشراف؛ مرتفع الحيطان نحو عشرين ذراعًا ودوره كلّه مسقّف على أعمدة عالية؛ ثلاثة صفوف بأتقن ما يكون من العمل وفي كل جهة أبواب جملتها تسعة وثلاثون وباب بني شيبة في ركن الحائط الشرقي من جهة الشمال أمام باب الكعبة متياسرًا؛ وفي جهة الشمال، باب دار النسوة؛ ودار الندوة وقد جعلت مسجدًا شارعًا في الحرم»[1]

العبدري أعطانا وصفًا مفصلاً عن المسجد الحرام من حيث المساحة والطول والعرض؛ مستندًا بقول الأزرقي كما أشار إلى ذلك فهو دقيق في تحديد المسافات والأبعاد لأنّه عاين هذا المكان بنفسه لذلك جاءت أوصافه مطابقة لأوصاف ابن جبير وابن بطوطة.

ب– وصف الكعبة المشرفة:

ينطلق لسان العبدري ليصف الكعبة قائلاً: «**وأمّا الكعبة شرّفها الله في وسط المسجد وفي موضعها يسير نتوء يبين للمتأمل؛ وبنائها عجيب متقن من حجر منحوت محكم الإلصاق؛ ولونه إلى الحمرة مع دكنة يسيرة وارتفاعها في السماء كما ذكروا ثلاثون ذراعًا ... بعلمين مثبتين في البناء وهما أسطوانات خضروان والمطاف لاصق بالمسجد؛ والمسجد على يسار الذّاهب من الصفا والمروة ناتئ مثل الصفا أو دونه قليلاً ولها درج؛ لا أقف الآن على حقيقته وذكر الأزرقي أنّه خمس عشرة وأنا أرى غير ذلك**»[2]. لقد فصل العبدري في وصف الكعبة على صورتها الحقيقية كما رآه؛ إلاّ أنّنا نجده دائمًا يرجع إلى المصادر التاريخية باعتبارها مرجعًا مهمًا ليتأكد من صحّة المعلومات.

ج– وصف المسجد الحرام:

المسجد الحرام هو من أعظم المساجد الإسلامية عمارة على وجه الأرض يقع في مكة؛ والعبدري يصفه قائلاً: «**وأمّا المسجد الحرام صانه الله تعالى فإنّه لم يبن قديمًا ولا كان حول البيت حائط وفي البخاري عن**

[1]– رحلة العبدري، ص 367.

[2]– رحلة العبدري، ص 375.

عمرو بن دينار وعبد الله بن أبي يزيد قالا "لم يكن في عهد النبيّ صلّى الله عليه وسلّم حول البيت حائط كانوا يصلّون حول البيت حتى كان عمر فبنى حوله حائط؛ قال عبد الله: جداره قصير فبناه ابن الزبير قلت: والمسجد الحرام هو ما دار بالكعبة وهو المصلّى ويطلق على الكعبة: وهو الظاهر من حديث أبي ذر أنّه سأل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: أي مسجد على ظهر الأرض وضع أولاً؟ قال: المسجد الحرام قال: ثم أيّ؟ قال: المسجد الأقصى قال: كم بينهما؟ قال: أربعون سنة»[1]

العبدري يستند في وصفه المسجد الحرام إلى الرّواية الصحيحة؛ التي قول بأنّ هذا المسجد لم يكن موجودًا في القديم ولما فتح النبيّ عليه الصلاة والسلام مكة طهّرها من الأوثان والتماثيل؛ وصار الناس يصلّون حول الكعبة ولم تكن ذلك الوقت محاطة بجدار أو سور حتى تظهر حدود المسجد الحرام.

د- وصف المدينة المنورة:

لما وصل العبدري إلى مكة المكرمة وقام بأداء مناسك الحج زار الأماكن المحيطة بها؛ بعدما توجّه إلى المدينة المنورة فوصفها قائلاً: «**وفي ضحى اليوم الاثنين الثامن والعشرين من ذي الحجة وصلنا إلى معهد الفضائل المشهورة؛ ومعقد ألوية الدين المشهورة ومحتد المآثر المذكورة المأثورة؛ مجمع محاسن الدّارسين ومنبع مفاخر العصرين ومطلع سعادة الثقلين؛ وروضة أزهار الأنام ومشرق أنوار التمام؛ وحمى كرم ما حام حوله حام ولا سام فأدم عيشهُ القشف بإكرام وأولاه مناه ولولاه لاستمر أذاه ودام**»[2]، كما نظم العبدري قصيدة ميمية استعملها بالحديث عن مدينة الرسول عليه الصلاة والسلام الذي اعتبره بلد الهجرة ويكنّ له منزلة خاصة، جاء فيها قوله:

مقـــام للعلاء به مقـــام وفيه انجاب عن ضوء ظلام

به مثوى السيادة غير شك به للدين والدنيـا انتظـــام

[1]- رحلة العبدري، ص 384.

[2]- رحلة العبدري، ص 419.

به قمر السعود ثوى مقيما فســـار بنور غرّته الأنام

به حلّت نجوم الأفق طرًّا فصار لهـــا بساحته التئام

به أهل المعاني والمعالي إمام في الشريعة أو همام[1]

هذه القصيدة تحفل بالمشاعر الجياشة للعبدري تجاه البلد الأمين الذي آوى إليه النبيّ عليه الصلاة والسلام؛ فكان مرقده ومثواه، فالرحّالة أسقط على المدينة صفات جليلة كونها تحوي قبر المصطفى وصحابته الكرام، بلد العلم والدّين فكم من عالم سما شأنه به إضافة أنّ المدينة يقصدها النّاس من كلّ حدب وصوب أثناء قيامهم بمناسك الحج، فالمكان بجماليته وروحانيته أصبح مشهدًا حسيًا تهتز له القلوب بمجرّد ذكر المدينة المنورة.

هـ- وصف مسجد رسول الله عليه الصلاة والسلام:

ورد في الأثر أنّ النبيّ عليه الصلاة والسلام قال بأنّ ثلاثة أماكن تشد الرّحال إليهم وهم؛ مسجد الحرام ومسجد الأقصى ومسجد رسول الله، فكل رحّالة زار المدينة المنورة كان يقوم بوصف الأماكن المقدّسة الموجودة فيها، والعبدري أفاض في وصف المسجد النبوي قائلاً: «**وأمّا مسجد النبيّ صلّى الله عليه وسلّم فعلى صورة المسجد الحرام؛ إلاّ أنّه في المساحة دونه بكثير وعرضه من الشرق إلى الغرب؛ وهو عالي السمك مبيض مدوّر بالسقائف؛ عجيب المنظر ووسطه فضاء مفروش برمل أحمر وأساطينه مبيضة بالفضة عالية متسع ما بينها؛ وأوسع سقائفه ناحية الجنوب وفيها المحراب وهي خمسة صفوف؛ وفي مؤخر المسجد وفي ناحية الشمال أربعة صفوف؛ وفي ناحية الشرق ثلاثة صفوف وفي الغرب أربعة صفوف وفي الناحية الشمالية من فضاء المسجد بيت مربّع مليح هو مخزن المسجد؛ وبالقرب منه نخلات صغار ناضرة عليها أثر التعاهد بالصون**»[2]؛ المسجد النبوي لا يختلف عن المسجد الحرام من حيث العمارة والتصميم؛ إلاّ أنّه يصغره مساحة،

[1]- رحلة العبدري، ص 421.

[2]- رحلة العبدري، ص 424.

فالعبدري فصل في الحديث عنه بإعطائنا وصفًا شاملاً دقيقًا من خلال معاينته لهذا المكان المقدّس الذي حظي بوصف مشفع عند كلّ رحّالة قام بزيارته.

و- وصف الروضة الشريفة:

ارتسم المشهد الدّيني في رحلة العبدري بالحديث عن أبرز الشواهد والآثار الدينية المتمثلة في وصف قبور الصحابة والصالحين قائلاً: «**وأما الروضة المقدّسة زادها الله شرفًا وجلالة؛ فهي في داخل المسجد عند الجدار الشرقي قريبًا من الركن الذي على يسار المحراب؛ وبينها وبين الرّكن الصف الأوّل؛ وبينها وبين الجدار الشرقي ممر ضيّق حسبما تقدم وهي شرّفها الله معمولة بالرّخام الأبيض من الأساس إلى سقف المسجد بأتقن ما يكون من الصنعة وأعجبه؛ وهي موضوعة على شكل التربيع ولكن ربعها الشمالي ينحوا نحو الاستدارة وفيه أركان وبعض انخراط إلى الجهة الشرقية؛ وفي ركنها الواصل بين الجدار الغربي والجنوبي صندوق مليح من الخشب مبني في الحائط بإزاء رأس النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وعلى يمينك وأنت مستقبل له علم بإزاء رأس أبي بكر رضي الله عنه؛ ثم آخر بإزاء رأس عمر رضي الله عنه ويعطي ذلك أنّها على هذه الصورة ...، وقد قيل فيها صفة أخرى غير هذه والله أعلم**»[1]

المتأمل لهذه الفقرة يجد أنّ ألفاظها تفيض بالمعاني الإيمانية والروحية؛ فالعبدري أعطانا صورة حيّة تتحرّك بوصفه لقبر النبيّ عليه الصلاة والسلام؛ وبجانبه قبر أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب الذين كانوا من خيرة أصحابه فشاءت الأقدار أن يجاوره في دار الخلود؛ فيا له من مشهد عظيم ووصف جليل فاق حدود المشاهد الدينية التي ذكرت في الرّحلة. ثم يشدّ العبدري الرّحال إلى القدس، والبعد عن الأهل لأوّل مرّة ممّا جعله يقول أبيات شعرية:

[1]- رحلة العبدري، ص 125.

ذكرت بيـــوم الفطـــر إذ أتى وقوس النوى ترمي الحشا أسهم الكرب

فراخًا نأى أنسي بنأي محلهم وصحبًا كـــرامًـــا ضمهم أفق الغرب[1]

فهو يتحدث عن القدس الشريف باعتباره أولى القبلتين وثالث الحرمين ليصف المسجد الأقصى قائلاً: «**وأما المسجد الأقصى فهو من المساجد الرائقة العجيبة المنشرحة الفسيحة وهو متسع جدًا طولاً وعرضًا وذكر أو عبيدة البكري أنّ طوله سبع مئة واثنان وخمسون ذراعًا بالمالكي؛ وهو ثلاثة أشبار وطوله من الجنوب إلى الشمال؛ وعرضه أربع مئة وخمس وثلاثون وهو من الشرق إلى الغرب وله أبواب كثيرة من الشرق والغرب والشمال؛ ولا أعلم بابًا قبليًا سوى الباب الذي يدخل منه الإمام وذكر بعض الناس أن عددها خمسون بابًا**»[2]

إنّ عمارة المساجد وحي من الله سبحانه وتعالى أوحى بها إلى نبيّه الذي بنى أوّل مسجد جامع للمسلمين يرمز إلى أصالة وعراقة الحضارة العربيّة الإسلاميّة؛ التي مازالت شامخة وخالدة بارتكازها على الدّين الإسلامي الذي ترجمته كثرة المساجد وعمارتها التي تعتمد على الزخرفة الإسلاميّة؛ وترفض التجسيم والتصوير الموجود في الكنائس.

ز- وصف قبة الصخرة:

معظم الرحّالة الذين زاروا بيت المقدس شاهدوا الصخرة الكبيرة التي عرج عليها النبيّ صلّى الله عليه وسلّم من السماء الدّنيا إلى السماء العليّا؛ فقدّم هؤلاء الرحّالة وصفًا مشبعًا لهذه الصخرة؛ والعبدري لم تفته فرصة معاينة هذا المشهد المرئي الجميل قائلاً: «**وفي وسط فضاء المسجد قبّة الصخرة وهي من أعجب المباني الموضوعة في الأرض؛ وأتقنها وأغربها وقد نالت من كل حسن بديع أوفر حصّة وثلث من الإتقان ظاهرة ونصّه وتجلّت في جمالها كعروس حسناء؛ حليت على منصة قامت مشرفة متبرجة على بقاع تصرح وتلوح**

[1]- رحلة العبدري، ص 280.

[2]- رحلة العبدري، ص 469- 470.

بالإعراب والإبداع؛ وتفصح بما يشرح عن فضيلة الصنّاع»[1]، مسجد قبّة الصخرة إحدى المعالم الإسلاميّة الخالدة التي تعكس شخصية الفنان المسلم؛ فهذا الصرح المقدّس هو من إبداع المسلمين الذين كانت لهم إسهامات كبيرة في بناء الحضارة العربيّة الإسلاميّة من بينها إنشاء المساجد ودور العلم لتكون شاهدًا حيًا على تراث العالم العربي الإسلامي.

وصفوة القول إنّ رحلة العبدري جاءت لتكشف النقاب عن واقع العالم الإسلامي، في تكوينه الثقافي والاجتماعي والحضاري، لقد انصب اهتمام العبدري بالناحية العلميّة للمدن التي زارها ليقدم صورة متكاملة واضحة المعالم لجميع مظاهر النشاط العلمي في كل بقعة وطأتها قدماه في المشرق والمغرب وجعل من رحلته مرآة صافية عكست ثقافته وسعة إطلاعه؛ وملكته الأدبية وموهبته الشعرية؛ تبقى رحلة العبدري وثيقة تاريخية وحلقة من حلقات التواصل بين المشرق والمغرب من خلال الآثار والمشاهد الموجودة في متون الرّحلة.

ثانيا: تمثلات الهجاء

كما قلنا سابقًا بأنّ رحلة العبدري احتوت أشكالاً فنّية كثيرة ومختلفة، فالآن نحن مع شكل من الأشكال الفنّية التي احتوتها الرّحلة العبدرية ألا وهو الهجاء والذي برز في الرّحلة كالآتي:

1- هجاء سكان الإسكندرية:

نظرًا لسوء أخلاق سكان الإسكندرية وما امتلأت به نفوسهم من حقد وضغينة لدرجة أنّهم عاملو الغريب معاملة سيئة: «**حسبك ببلد أربي في الحُسن على البلاد، وله من الفضيلة كلّ طارف وتلاد وليس به من أهل الفضل إلاّ آحاد قلّوا عددًا**»[2]

رغم جمال الإسكندرية وحصانتها إلاّ أنّ سكانها تجرّدوا من لباس الفضيلة، وهذا راجع إلى مرض نفوسهم التي طبعت بطابع الحقد إلاّ أنّنا نجد فئة قليلة تعدّ على الأصابع تتحلّى بالأخلاق الحميدة ويكنهم بأهل الفضيلة.

---

[1]- رحلة العبدري، ص 470- 471.

[2]- رحلة العبدري، ص 206.

ومن الأمور التي يستغربها أيضًا في سلوكهم ويعتبرها من البشاعة والقبح ما يتعرّض له الحجاج على أيديهم من أذى وتفتيش نساءً ورجالاً بحثًا عمّا بأيديهم فيلزمونهم بأنواع من المغارم ويذيقوا لهم ألونًا من الهوان، ممّا جعل العبدري ينفي وجود أناس في أي بلد من البلدان بهذه الصفة وقسوة القلوب قائلاً: «**وما رأيت هذه العادة النميمة، والشيعة اللئيمة، في بلد من البلاد، ولا رأيت في النّاس أقسى قلوبًا، ولا أقل مروءة وحياءً ولا أكثر إعراضًا عن الله سبحانه، وجفاءً لأهل دينه من أهل هذا البلد، نعود بالله من الخذلان**»[1]

ويتعجّب من الأخلاق الوضيعة التي يتّصف بها بعض سكان الإسكندرية من مهاجمتهم لحجاج بيت الله كإهانتهم ونهب أموالهم وهذه الصفة الذميمة لم يرها العبدري في أي بلد حلّ به إلاّ في الإسكندرية ما جعله يتحامل على سكانها ويصفهم بحقارة واستهتار، ويورد في هذا المجال بقصيدة طويلة كان ابن جبير قد نّصح بها صلاح الدين الأيوبي ودعاه إلى رفع هذه المغارم عن الحجّاج وممّا جاء في هذه القصيدة:

وقد بقيتُ حسبة في الظلوم وتـلك الذخيرة للذاخـــر

يعنف حجّـاج بيت الإلــه ويسطو بهم سطوة الجائـر

ويكشف عمّـــا بأيديهم وناهيك من موقف صاغـر

وقد أوقفوا بعدما كوشفوا كـــأنهم في يـــد الآســر

ويلزمهم حلفـــا بـــاطلا وعقبى اليمين على الفاجر[2]

ومع كل هذا فإنّه يعلّق بأنّه رأى بالإسكندرية: "أفراد من أهل الفضل علما ودينا، وددت لو منحت في ذكر فضلهم قلبًا حافظًا ولسانًا مبينًا، فمنهم من استكتمني اسمه وعاهدني على ألاّ أذكر اسمه، عملاً على منهج زهده، ومحجّة تقواه وصونًا للآخرة أن يشوبها حظ لغير الله".

[1]- رحلة العبدري، ص 216.

[2]- رحلة العبدري، ص 220.

هذا يدلّ على أنّ العبدري كانت له صلة وثيقة بشيوخ وعلماء الإسكندرية في أخذ المرويات والأسانيد عنهم ممّا حدا به إلى اعتبارهم أفضل النّاس علمًا ودينًا.

2- هجاء سكان القاهرة:

يبدوا أنّ سكان القاهرة لا يختلفون عن سكان الإسكندرية في اتصافهم بالأخلاق الوضيعة، إذ عدّد كل ما يتّصفون به من أسوأ الصفات وأقبحها كالشقاق والحسد والغش، وهكذا ينفي عن أهلها كل فضيلة قائلاً: «**وما رأيت بالمغرب الأقصى والأندلس على شكاسة أخلاقهم ولا بإفريقيا وأرض برقة والحجاز والشام فريقا من النّاس أرذل أخلاقا وأكثر لومًا وحسدًا ومهانة نفوس، وأضعف قلوبًا، وأوسخ أعراضًا وأشد دمامة وخيانة، وسرقة وقساوة وأجفى للغريب من أهل هذه المدينة المؤسسة على غير التقوى**»[1]

إذ فرغم أنّه شاهد أراذل النّاس في البلدان التي دخلتها، لكنه لم ير مثل القاهريين بما هم عليه من خبث الطوية وحقارة النّفس ودناءتها: «**فمن أظهر منهم نسكا فأحبولة نصبها للصيد ومن تعلّم علمًا فحيلة أرادها للكيد**»[2]

ومن الصفات التي استقبحها العبدري في سكان القاهرة عدم اهتمامهم بالمساجد وعدم مواظبتهم وحرصهم على نظافتها: «**ومن الغرائب عندهم تضييع المساجد والجوامع وإهمالها، وقلّة التحفّظ حتّى تصير مثل المزابل، وتسوّد حصرها وحيطانها من الأوساخ وقد صليت الجمعة في بعض جوامعها، فرأيت فيه أكوامًا من أنواع الكناسات**»[3]

ما رآه العبدري في سكان القاهرة من أخلاق وضيعة حتى وصل بهم الحد إلى عدم العناية بالمساجد باعتبارها مكانًا للعبادة للتّقرب إلى الله عزّ وجلّ، وهذا يدلّ على ضعف الروابط الرّوحيّة عند سكان هذا البلد،

[1]- رحلة العبدري، ص 279.
[2]- رحلة العبدري، ص 277.
[3]- رحلة العبدري، ص 280.

فما سبب تحامله على أهل القاهرة بهذا الشكل القاسي؟ هل السبب يكمن فيما ذكره نفسه عن أخلاقهم من بعضهم للغريب وعدم اهتمامهم به؟ ربّما كان هذا ما آثار حفيظة العبدري، ووقوفه منهم هذا الموقف المتشدّد خاصّة وأنّه قد عاين ذلك وعاناه، فلقد حضر مع سكان القاهرة صلاة عيد الفطر فلم يسمع منهم كلمة تأنيس بل نبذوه وتركوه وحيدًا، فاستشعر الغربة.

ثالثا: تجليات السرد

بما أنّ السّرد يعتبر من الأشكال الفنّية التي تقوم عليه النّصوص الرّحليّة، وبما أنّه من الأدوات الجمالية التي تساعد الرحّالة على نظم نصه الرّحلي، فإنه يتوجب علينا التطرّق إلى هذا الشّكل الفنّي، وذلك بوقوفنا على مفهومه وأشكاله وبعضًا من أساليبه.

1- تعريف السرد:

السّرد بأقرب تعاريفه إلى الأذهان هو الحكي والذي يقوم على دعامتين أساسيتين:

أولهما: أن يحتوي على قصة ما تحتوي على أحداث معينة.

وثانيهما: أن يعين الطريقة التي تحكي بها القصة وتسمى هذه الطريقة سردًا.

والسّرد هو الكيفية التي تروى بها القصة عن طريق قناة الرّاوي والمروي له، وما تخضع له من مؤثرات، بعضها متعلّق بالرّاوي والمروي له، والبعض الآخر متعلّق بالقصة ذاتها.[1]

والسرد مصطلح نقدي حديث يعني «**نقل الحادثة من صورتها الواقعيّة إلى صورة لغويّة**»[2]

لكن أيسر تعريف هو تعريف "رولان بارت" بقوله: «**إنّه مثل الحياة علم متطوّر من التاريخ والثقافة**»[3]

---

[1]- حميد لحميداني: بنية النّص السّردي من منظور النقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط3، 2003، ص 45.

[2]- آمنة يوسف: تقنيات السّرد في النظرية والتطبيق، دار الحوار للنشر والتوزيع، سوريا، ط1، 1997، ص 28.

[3]- عبد الرحيم الكردي: البنية السّردية في القصة القصيرة، مكتبة الآداب، ط3، د ت، ص 13.

بالرغم من بساطة هذا التعريف إلاّ أنّه واسع جدًا، فالحياة غنية عن التعريف وهذا راجع لتنوعها وسرعة تقبّلها وارتباطها بالإنسان.

2- أشكال السرد:

بعد ما تطرقنا إلى مفهوم السّرد، سوف نذهب بالحديث عن أشكال السّرد وهي كالآتي:

أ- السّرد التابع:

هو السّرد الذي يقوم به الرّاوي بذكر أحداث حدثت قبل زمن السّرد، بأن يروي أحداثًا ماضية بعد وقوعها، وهذا هو النمط التقليدي للسّرد بصيغة الماضي، وهو النّوع الأكثر انتشارًا على الإطلاق.[1]

ب- السّرد المتقدّم:

هو سرد استطلاعي وغالبًا ما يكون بصيغة المستقبل، وهو من أكثر أشكال السّرد ندرة في تاريخ الأدب، كأن يقول السّارد سأقابل فلان غدًا، وسأجعله يعرف من أنا ...إلخ.[2]

ج- السّرد الآني:

هو سرد يصاغ بصيغة الحاضر لزمن الحكاية المسرودة؛ أي أن حدث الحكاية وعملية السّرد تدوران في وقت واحد، كأن يصف السّارد وصف يدور في تلك اللّحظة.[3]

د- السّرد المدرج في ثنايا الزمن الحكائي:

هو أكثر أنواع الشكل تعقيدًا لأنّه ينبثق من أطراف عديدة وأكثر ما يظهر في الرّوايات القائمة على تبادل الرّسائل بين شخوص العمل السّردي، إذ تكون الرّسالة في الوقت نفسه وسيطًا للسّرد وعنصرًا في العقدة؛ بمعنى أنّ الرّسالة تكون ذات قيمة إنجازية كوسيلة من وسائل التأثير في المرسل إليه.[4]

---

[1]- محمد عبد الله: السّرد العربي، أوراق مختارة من تلقي السّرد العربي الأوّل وملتقى السّرد العربي الثاني، رابطة الكتاب الأردنيين، ط1، 2011، ص328.

[2]- المرجع نفسه، ص 331.

[3]- المرجع نفسه، ص 331.

[4]- المرجع نفسه، ص 331.

3- أساليب السّرد:

توجد في السّرد العربي أساليب مختلفة نذكر منها:

أ- الأسلوب الدرامي:

في هذا الأسلوب يسيطر الإيقاع بمستوياته المتعدّدة من زمانية ومكانية منتضمة ثم يعقبه في الأهمية المنظور ثم تأتي بعده المادة.

ب- الأسلوب الغنائي:

أما في هذا الأسلوب تصبح الغلبة فيه للمادة المقدمة في السّرد، حيث تتّسق أجزائها في نمط أحادي يخلو من توتر الصراع ثم يعقبها في الأهمية المنظور والإيقاع.

ج- الأسلوب السينمائي:

ويفرض المنظور سيادته من سواه من ثنائيات، ويأتي بعده في الأهمية الإيقاع والمادة ومع أنّه لا توجد حدود فاصلة قاطعة بين هذه الأساليب، إذ تتدخل بعض عناصرها في الكثير من الأحيان، ويختلف تقدير الأهمية المهيمنة من قراءة نقدية إلى أخرى مما يجعل التصنيف غير مانع بالمفهوم المنطقي.[1]

وتجلّى السّرد في رحلة العبدري في أشكال وقوالب متعدّدة ومتنوعة بتنوّع الشيء المسرود الذي أراد الرحّالة إيصاله إلينا عن طريق رحلته أو نصه الرّحلي الذي نحن بصدد الخوض في غماره، هذا ويمكننا الوقوف على الجانب السّردي في رحلة العبدري والذي هو كالآتي:

4- سرد بداية الرّحلة:

بدأ العبدري في سرد رحلته بالدعاء، حيث قال في سرده لبداية رحلته «**كان سفرنا تقبّله الله تعالى. في: الخامس والعشرين من ذي القعدة، عام ثمانية وثمانين وست مئة، ومبدؤه من حاحة _صانعا الله_ وكان طريقنا على بلاد القبلة فزرنا بموضع أنْسًا من أعلى بلاد السوس الأقصى، قبر الشيخ الصالح أبي حفص**

[1]- محمد عبد الله: السّرد العربي، أوراق مختارة من تلقي السّرد العربي الأوّل وملتقى السّرد العربي الثاني، ص 333.

عمر بن هارون، وهو من كبار الأولياء، ومن عظماء الصالحين _نفعنا الله بهم_ ذكره صاحب كتاب "التشوف" وبالغ في الثناء عليه، وذكره الفقيه الصالح أبو فهد سعيد الحاحي المترازي في كتابه "منار العلم" أنه كان يدخل عليهم في الدرس فيقول لهم "تهنئكم عبادة القلوب والألسن والأيدي والأعين" يعني العلم، وهذا كلام من أيّد بالتوفيق وأمد بالتحقيق، وحضر معناه زيارة قبره جماعة من الصالحين، ورأينا من حضور القلوب عنده ما قوى الرجاء في نيل بركته»[1]

وفي أوّل سفرنا دخلنا مسجدًا لصلاة الظهر فوجدنا به ألواح صبيان المكتب، فنظرنا فيها تبركًا بها فوجدنا في أوّل لوح منها «**ومن يتوكل على الله فهو حسبه**»[2]، وفي الثاني «**ومن يتّق الله يجعل له من أمره يسرا**»[3]، وفي الثالث «**فلولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين**»[4]، وفي الرابع «**وقالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا**»[5]، وفي الخامس «**يوفون بالنذر**»[6]، وفي السادس «**قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا**»[7]، فسررنا باتفاقها على الإنارات في البشارات، وحمدنا الله على ذلك.

وبعد ليلتين أو ثلاث رأيت في المنام الفقيه القاضي الإمام أبا الوليد الباجي _رحمه الله_ فخطر لي أن أقرأ عليه شبهًا من كلامه مما حضرني إلاّ قوله:

إذا كنتُ أعلمُ علمًا يقينًا بأن جميع حياتي كساعـــة

فلمْ لا أكـــون ضنينًا بها وأجعلُها في صلاحٍ وطاعة؟[8]

---

[1]- رحلة العبدري، ص 40، 41.

[2]- سورة الطلاق، الآية 03.

[3]- سورة الطلاق، الآية 04.

[4]- سورة البقرة، الآية 64.

[5]- سورة الأعراف، الآية 43.

[6]- سورة الإنسان، الآية 07.

[7]- سورة التوبة، الآية 51.

[8]- رحلة العبدري، ص 42.

5- سرد لما اعترضه في الرّحلة:

يقول العبدري في هذا الشأن، «**ولما انتهينا إلى الفازة في طريق تلمسان وجدنا طريقًا منقطعًا مخوفًا، لا تسلكه الجموع الوافرة إلاّ على حال حذر واستعداد، وتلك المفازة مع قربها _من أضر بقاع الأرض على المسافر_ لأن المجاورين لها من أوضع خلق الله وأشدّهم إداية، لا يسلم منهم صالح ولا طالح، ولا يمكن أن يجوز عليهم إلاّ مستعدًا يتفادون من شره، وطلائعهم أبدًا على مرقب لا يخلو منها البتة اطلع الله عليهم من الآفات ما يسحتهم، جميعًا أصلاً وفرعًا ويقطع دابرهم إفراد وتثنيةً وجمعًا، حتى يكونوا آية للمعتبرين، وعبرة للناظرين، بعزة الله وقدرته، وحوله وقوته ".... بينما أنا أوصي من أردت إقامته متنغصًا بهذا الحال وأعرفه بما يصنع، إذ وقف علينا جماعة رجال مسلحين عارضين بالطريق، عازمين على إعتساف المجهل فاستربت بهم ثم قوي في نفسي إن ذلك لطف من الله تعالى وغوث أتاحه لنا**»[1]

فسرت معهم، فلما وصلنا موضع تحقيق الخوف، وهم لا يعرفون سوى الجادة المخوفة _خطر لنا أن نخاطر في ركوب متن الفلاة بلا دليل، وذلك حين غروب الشمس ولما حصحص اليأس وتحقّق الرأي الالتباس، وصل من اللطيف معهود الألطاف وعاد من عطفه علينا انعطاف، ... وقف علينا خمسة أشخاص فسألون عن الوجهة فأخبرناهم واستدعونا للمرافقة فأجبناهم وسروا بنا في مجاهل يضل بها الدّليل ... حتى قطع بنا تلك المفاوز واكتسينا بحمد الله.[2]

وهكذا يكون العبدري قد سرد لنا بعضًا ممّا اعترضه أثناء رحلته، والتي لم يخطو فيها خطوة إلاّ وحمد الله تعالى على نعمة الأمن التي منّ الله عليه بها.

[1]- رحلة العبدري، ص 45.

[2]- رحلة العبدري، ص 47.

6- دخول المدن ولقائه بعلمائها:

6-1- دخول المدن:

وفي مجال سرد العبدري لما يحدث معه تتداخل أيضًا سرد دخول المدن ولقاء العلماء، حيث يسرد لنا العبدري دخوله لبعض المدن التي مرّ بها خلال رحلته وكيف كانت زيارته لها، حيث لنا وقفة على بعض المدن التي مرّ بها العبدري وأبرز العلماء الذين التقى بهم أثناء رحلته.

أ- الجزائر:

يقول العبدري في سياق سرده لدخول مدينة الجزائر:

«ثم وصلنا إلى الجزائر وهي مدينة تستوقف بحسنها ناظر الناظر ويقف على جمالها خاطر الخاطر، قد جازت مزيتي البر والبحر، وفضيلتي السهل والوعر، لها منظر معجب أنيق، وسورٌ معجز وثيق، وأبواب محكمة العمل، يسرح الطرف بها حتى يمل، ولكنّها قد أقفرت من المعنى المطلوب كما:

أكفر من أهله ملحوب .....

فلم يبق بها من هو من أهل العلم محسوب ولا شخص إلى فن من فنون المعارف منسوب، وقد دخلتها سائلاً عن عالم يكشف كربة أو أديب يؤنس غربة، فكأني أسأل عن الأبلق العقوق، وأحاول تحصيل فيض الأنوق»[1]

ب- بجاية:

ثم وصلنا إلى مدينة بجاية، مبدأ الاتفاق والنهاية، وهي مدينة كبيرة حصينة شهيرة، برية، بحرية، سنية سرية، وثيقة البنيان عجيبة الإتقان، رفيعة المباني عربية المعاني، موضوعة في سفح جبل وعر، مقطوعة بنهر وبحر مشرفة عليهما إشراف الطليعة متحصنة بها منيعة، فلا مطمع لمحارب ولا متسع بها لطاعن وضارب، ولها جامع

[1]- رحلة العبدري، ص 82.

عجيب، منفرد في حسنه غريب، من الجوامع المشهورة، الموصوفة المذكورة، وهو مشرف على برها وبحرها، وموضوع بين سحرها ونحرها، فهو غاية في الفرجة والأنس، ينسرح الصدر لرؤيته وترتاح النفس، وأهلها يواظبون على الصلاة فيه مواظبة رعاية، ولهم في القيام به تهمّم وعناية، فهو بهم مأهول عامر، يتخلّل أنسه مسلك الأرواح ويخامر.

وهذا البلد بقية قواعد الإسلام ومحل جلة من العلماء، أعلام، له مع حسن المنظر طيب المخبر، ومع المرأى الرائق المعنى الفائق، ومن الحصانة ووثائق البنيان، ما أزرى بإرم وغُمدان، ولأهله من حسن الخلق والخلائق....»[1]

ج- قسنطينة:

ثم وصلنا إلى البلد الذي انشقت فيه الخطوب معيّنة، وأبت الأقدار أن تكون له معينة، بلد الوضع العجيب والموضع الخصيب، مدينة قسنطينة، جبر الله صدعها وكفاها من نوائب الدهر ما وصل قرعها وهي مدينة عجيبة حصينة، غير أنّها لخطوب الدهر مستكينة، قد ذبلت سوارج الغير، وفوادح الضرر رياضها، ونضبت بسهائم الآفات وعظائم الملمات حياضها حتى صارت كالحسناء لبست أسمالاً، والكريم فقد مالا والبطل أثخنته الجراحة حتى لم يطق احتمالاً، فهي ترى الحوادث لحًا باصرًا، وتنادي بلسان الحال «**ذُلٌّ لَوْ أَجِدُ نَاصِرًا وتنادي بلسان الحال "ذُلٌّ لَوْ أجِدُ نَاصِرًا" *من رأيت المنون خلَّدن أم من* ذا لديه من أن يضام حفيرُ**»[2]

د- تونس:

يقول العبدري في سرده لنا، دخوله إلى مدينة تونس:

«**ثم وصلنا إلى تونس مطمح الآمال، ومصابُ كل برق، ومحطّ فضائل البرّين في سلك، فإن أبحرت في موكب، فكأنّها ملك والأرباض لها إكليل، وأرجاؤها روضة باكرتها ريحٌ بليل؛ إن وردت مواردها**

[1]- رحلة العبدري، ص 83.

[2]- رحلة العبدري، ص 94.

نفعت غليلاً، وإن ردت فرائدها سقيت حشًا عليلاً جلبت بها عروس الغروس، وحلبت بها على ممر الحروس، الطروس، لا ننشد بها ضالة من العلم إلاّ وجدتها ولا نلتمس بها بغية معوزة إلاّ استفدتها...»[1]

6-2- لقاء العلماء:

أ- لقاؤه لابن باديس:

يقول العبدري في هذا الشأن: «**ولم أر بها من ينتمي إلى طلبٍ، ولا من في فن من فنون العلم أرب، سوى الشيخ أبي علي بن بلقاسم بن باديس، وهكذا قيد لي اسم أبيه بخطه مخلوطا، وقال لي أنّه اسم وكنية، وهو شيخ من أهل العلم يذكر فقيهها ومسائل ذو سمة وهيبة ووقار؛ وليس في البلد من يذكر بعلم سواه البتة، وليست له بالرواية عناية، ولم يروِ إلاّ "الموطأ" وحده فإنّه قد قرأه على الشيخ الفقيه المحدث أبي يعقوب، يوسف بن موسى العماري الحساني حين خطر على قسنطينة راجعًا من المشرق فأقام عندهم مدة لتوالي الأمطار، فقرأه عليه وهو إذا ذاك كبير، وفارقه وهو عنده مجهول، وما عرف من هو حتى عرفته به حين رأيت خطه الذي كتبه له على "الموطأ" وقد قرأت عليه صدرًا منه، وحدثني به عنه...**»[2]

ب- لقاؤه للشاطبي:

وفي تداخل السرد لدى العبدري يسرد لنا لقاؤه بالعالم الشاطبي والذي وصفه بأهل الشِمة الفضلى، حيث نجده قائلاً:

«**ولم أر بها [يقصد بها بجاية] من أهل الشِمة الفضلى والطريقة المثلى، أمثل من الشيخ الفقيه، الخطيب الصالح، المسند الراوية، أبي عبد الله محمد بن صالح ابن أحمد الكناني الشاطبي _حفظه الله_ وهو شيخ على سنن أهل الدين سالك سبيل المهتدين مقبل على ما يعينه، مشتغل بعمر في طاعة الله**

[1]- رحلة العبدري، ص 108- 109.

[2]- رحلة العبدري، ص 95.

يفنيه، دأبه الاقتصار على تجويد الكتاب، والتردّد ما بين بيته والمحراب، وقد لُقي من الشيوخ أعلامًا، صيّره لقاؤهم والأخذ عنهم إمامًا، وله من علو الرواية حظٌ وافرٌ من الدراية، إلى خلقٍ لو شاب ماء البحر صار فراتًا ودينٍ وافرٌ خشوعًا واخباتًا، وجد شاهدت له من غزارة العبرة، ما هو من أعظم العبرة.

ولما ودعته قال لي "إنّك توحشني بفراقك ! وقد أقبل عليك قلبي لأوّل ما رأيتك"...»[1]

ج– لقاؤه لابن هارون:

يقول العبدري عن لقاؤه بابن هارون: «**وكان حكم السفر حينئذٍ قد استمر وتمادى فلم ألقَ بها من أهل العلم إلا أحادًا، منهم الشيخ الفقيه، الفاضل المسند المسن أبو محمد عبد الله بن محمد بن هارون الطائي القرطبي، وهو شيخ وطيئ الأكناف لين الجانب لقاصديه له رواية عالية لكبر سنه، أدرك جملة من أفاضل العلماء وروى عنهم، منهم الشيخ الفقيه الخطيب المقرئ جدّهُ لأمّه، أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن خلصة الحميري والقاضي أبو القاسم أحمد بن يزيد بن بقي وصحب أبا القاسم بن الطليسان وأخذ عنه كثيرًا...**»[2]

7– سرد جهل الحجاج:

نجد العبدري معلقًا على هذه الظاهرة حين يقول:

«**ولم أدخل قبة زمزم لكثرة الازدحام ولا ضاغطت في دخولها، لما كنت عزمت عليه من الإقامة، فأملت التشفي منها ومن غيرها في وقت الفراغ، وخفة الزحام وقدرت ما جرى القدر بغيره، وليس إلاّ ما شاء الله وقد وقفت عليها مرارًا فلم أجد مدخلاً من كثرة وإفراط الزحام ...**

قلت: ولم ير عبرة من لم يرى قتالهم على الركن الأسود وعلى دخول الكعبة ترى الرجال يتساقطون على النساء ونرى النساء يتساقطون على الرجال، ويلتف البعض بالبعض...

[1]– رحلة العبدري، ص 84.

[2]– رحلة العبدري، ص 115.

ويقول أيضًا:

وأما قتالهم على باب الكعبة، وتطارحهم وتعلق بعضهم ببعض فعجب، وذلك أنّ الباب مرتفع أزيد من القامة»[1]

هذا ونظرًا لكون رحلة العبدري تحتوي على جانب سردي كبير فإنّه يتوجب علينا الأخذ بالبعض منه فقط لأنّه لا يمكن احتوائها كلها. كونه مجالاً واسعًا ودراستنا لا تتوافق وذلك.

رابعا: الاقتباس

تحتوي رحلة العبدري العديد من الآيات القرآنية، فإذا روى قصة أو ذكر حدثا مهما أتى بالدليل على روايته من كتاب الله أو مصنفات الأحاديث النبوية الشريفة، فعندما يسرد لنا قصة بناء الكعبة المشرفة على يد النبيّ إبراهيم، وابنه إسماعيل عليهما السلام، إذ يقول: «**ربنا تقبل منا إنّك أنت السميع العليم**»[2]، ولا يذكر قولاً إلاّ جاء بروايته كأن يقول: روى الدراقيطي عن عائشة قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «**إذا قضى أحدكم حجة، فليعجل الرّحلة إلى أهله، فإنّه أعظم لأجره**»[3]، واعتماده على الاقتباس كثير خاصة إذا تعلّق الأمر بقصص الأنبياء أو شروط مناسك الحج مع إبدائه لرأيه القائم لحجة والدليل الشرعي.

خامسا: الاستطراد

عمد العبدري في حديثه إلى الاستطراد، فنراه يسترسل في الكلام عن شيء، وسرعان ما ينهي ذلك لينتقل إلى أمر آخر، ثم يعود بنا إلى ما سبق وحدثنا عنه، ففي ذكره للمسجد الحرام يشوقنا بالوصف فيقول: «**يخيل للناظر إليه أنّه مربع مفروش برمل أبيض جميل المنظر جدًا، محكم العمل، عجيب الصنعة، كثير**

[1]- رحلة العبدري، ص 371.

[2]- سورة البقرة: الآية 127.

[3]- رحلة العبدري، ص 473.

الإشراف»[1]، ويأخذنا بعد ذلك إلى بئر زمزم فالمقام ثم الكعبة يصفها تارة، ويروي أخبارها تارة أخرى ويعود بنا إلى المسجد الحرام.

وحتى لا يغفل عن أي تفصيل، ليذكر قصة عنه مختصرها أنّ "عمر بن الخطاب" هدم بعض الديار التي كانت تحيط بالمسجد الحرام بعد أن دفع ثمنها لأصحابها، وبنى مكانها سورًا حول المسجد[2]، فتوسعت بذلك رقعته.

سادسا: تلوينات بديعية

1- الترصيع:

يأتي العبدري بنص مرصّع بلفظ أنيق بشكل بديع، ويقرن ذلك بالوصف أكثر منه في السرد، فمكنه مثلا هي: «**حرم لا يهنك حماه، شرف لا يحظ علاه، علم لا يجحد هداه من أمه من فقر البيت هداهُ**»[3].

ويستخدم العبدري هذا المحسن البديعي في كل مرة يعمد فيها إلى الوصف وذلك يصبح "تجميلا للرحلة في حدود الفائدة، انطلاقا من أنّ النص يزداد بغناه المعرفي، مقدما من كل بستان زهرة، وكل مكان لقطة أو مشهدًا أو موصوفًا لا يجود به الشهر مرتين"، ومن خلال هذا القول يتضح لنا أنّ جمال النص لا يقتصر على الجانب الشكلي فحسب بل يتعداه إلى إفادة القارئ وتزويده بالمعرفة.

2- الجناس:

الجناس من أبرز المحسنات التي أعجب بها العبدري واستهوته، فتراه يسعى وراءه تامًا أو ناقصًا، ولا يهمه ذلك إلاّ جمال تشكل العبارة، وإن لم يكن وراءها طائل فمن ذلك قوله: «**محلٌّ عد البدر الفاضل هالة، منزل**

---

[1]- رحلة العبدري، ص 367.

[2]- رحلة العبدري، ص 325.

[3]- رحلة العبدري، ص 360.

إن نازله وصاف بالوصف هاله، قصاراي القصور ولو كنت ابن أبي هالة ...وبه تحط أوزاره من قطن أوزار»[1]

3- الطباق والمقابلة:

كان للطباق والمقابلة حظ في رحلة العبدري كقوله في ذكر مليانة: «**وأدى له من حكمة خطلاً، وكساه بعد الحبر الأظمار... وأحل حلاله بعد الأنس يأنسها وحشة العمار**»[2]، وقوله كذلك: «**دجا عليهم ليل همّ أذلهم بعد نهار سرور تألق**»[3]

سابعا: الجانب التاريخي:

يقتضي الحديث عن تاريخ بلد ما؛ هو أن يستوفي الوصف تأسيسه من حيث الظروف المحيطة بهذا الأخير؛ باحثين في ذلك عن من كانت له يد أو مساهمة في تخليد أساس هذا البلد كإنشاء عمرانه: وإعطائه إسمًا له سند عريق، والعبدري لما خرج من بلده حاجا بنية أداء مناسك الحج، مرّ بعدة بلدان وقرى فوصفها عمرانيًا وثقافيًا، لكنه أهمل تاريخ تلك البلدان إلاّ مدينة برقة توقف عندها وأعطاها لمحة تاريخية: «**وبرقة مدينة من بناء الروم، وكان اسمها انطابلس، قال البكري: "ومعناها بلغة الروم الإغريقية خمس مدن ومعنى أطرابلس ثلاث مدن" وليس هناك مدينة تسمى برقة ولا مدينة مذكورة إلا طلميئة وهي قديمة، ولست أدري أهي برقة فغيّر اسمها ثانيًا إلى طلميئة كما غير أولا إلى برقة أم هي غيرها**»[4]

العبدري يصرح بأنّ المدينة "برقة" بناها الروم قديما، ويتساءل عن اسمها الحقيقي، ونرى أنّه يضمن في نصه أقوال البكري ليتأكد من صحة المعلومات التي حصل عليها بشأن هذه المدينة.

---

[1]- رحلة العبدري، ص 419- 420.

[2]- رحلة العبدري، ص 79.

[3]- رحلة العبدري، ص 211

[4]- رحلة العبدري، ص 205- 206.

ثامنا: الجانب الاقتصادي:

تقديم البلاد اقتصاديًا يقتصر على بعض منها الزراعة والصناعة والتجارة والثروة الحيوانية، والعبدري في رحلته هذه التي قطع فيها أشواطًا كبيرة، ومرّ على مدن ومناطق كثيرة فوصفها عمرانيًا، وركّز على الجانب الثقافي فيها؛ إلاّ أنّ الجانب الاقتصادي كان حاضرًا بقلة في نصوص الرّحلة التي تناولت دراسة المناطق التي زارها ربما لأسباب تجهل حقيقتها، فلما تمعن النظر إلى مناطق الحجاز فنجد بعض أراضيها لا ينبت فيها الزرع، باستثناء مدينة ينبع التي تميزت ببعض الغلات الزراعية كالتمر؛ «**وللركب في ينبع سوق كبير، والتمر فيه كثير، ومنه يتجهز من نقصه شيء من زاده إلى مكة**»[1]

يعتبر التمر مصدر عيش سكان ينبع، فهو الثمرة الوحيدة التي تُنبت في هذه المدينة لوجود الماء بكثرة وطبيعة المناخ المناسب لزراعة التمر، لذلك يتم بيعه بكميات كبيرة في سوق كبير يلتقي فيه التجار من مناطق مختلفة لاقتنائه،كما يجلب التمر إلى مكة باعتباره زاد الحجاج، فهو غداء كامل لاحتوائه سعرات حرارية تساعد الإنسان في الحفاظ على طاقته.

وينتقل العبدري للحديث عن سوق بدر التي تبعد عن ينبع بمسافة يومين، ويباع في هذه السوق التمر وعلف المواشي: «**ويقوم في بدر سوق كبير أيضًا، لأنّ أهلها ومن جاورهم إلى المدينة يتحينون وصول الركب، فيستعدون لذلك ويحضرون ما يبايعونهم به من تمر وعلف وجمال وغير ذلك**»[2]

سوق بدر لا تختلف عن سوق ينبع في بيع التمور التي تكثر زراعتها بهاتين المنطقتين، والتجار في سوق بدر ينتظرون وصول ركب الحجاج لعرض سلعهم وبيعها من تمر وعلف وجمال.

وغير بعيد عن سوق بدر، هناك سوق يبعد عنه بمسيرة ثلاثة أيام وهو يوجد بمنطقة البزواء، وهي منطقة مهجورة يصعب فيها العيش لقلة الزرع والماء، إلاّ أنّ التجار يلتقون في هذه المنطقة ويعرضون سلعهم من تمر

[1]- رحلة العبدري، ص 345.

[2]- رحلة العبدري، ص 346.

وغنم: «**وفي تلك الجهة عربان كثيرة تقيم مع الركب سوقا عظيمة، ويجلبون إليها التمر والغنم فيتسع العيش ويرخص**»[1]

بالرغم من وجود البزواء في مكان مقفر، إلاّ أنّها مثلث موقعًا هامًا لالتقاء التجار بها، ما يسهل عملية البيع والشراء.

تاسعا: الجانب الاجتماعي:

لم يكتف العبدري في رحلته بوصف الآثار العمرانية، والحياة العلمية للبلدان التي زارها، بل انصب اهتمامه كذلك على وصف حياة الناس وما يتخللها عن عادات وتقاليد تختلف من منطقة لأخرى، ومن زيارته لمدينة برقة يظهر نفوره من هذا البلد، وعادات أهله القبيحة قوله: «**ومن العجب عندهم أن كل امرأة لابد لها من خرقة تسدلها على وجهها ويسمونها البرقع، وهي تتخلّل الناس مكشوفة الرأس والأطراف، حافية القدمين، لا تهتم بستر ما سوى وجهها كأن ليس لها عورة سواه،فلا تزال تلك الخرقة عرضة للاتساخ ومرصدًا لعارض الأوساخ لا تصان فتماط**»[2]

إنّ هذه العادات منافية تمامًا لتعاليم الدين الإسلامي الذي أباح للمرأة كشف الوجه واليد ما دون ذلك هو عورة يجب سترها، والعبدري ظهر بصورة الرجل الفقيه المتدين الذي يرفض ما يشين لحضارة الإسلام ويطعن في قدسية القرآن.

وفي موضع آخر نجد الرحّالة يقر بالأخلاق الحميدة التي اتصف بها سكان برقة: «**إنّهم يقرون النزيل، ويوالون المنفض بالجميل ولا معترض للحجاج عندهم، وإن كان فهو قليل**»[3]

هذه شهادة حقا في سكان برقة الذين تعودوا على إكرام الضيف ومعاملة المسيء بالحسنة، وعدم التعرض للحجاج، وإن صدر هذا الفعل فيأتي من فئة قليلة.

---

[1]- رحلة العبدري، ص 349.

[2]- رحلة العبدري، ص 204.

[3]- رحلة العبدري، ص 203.

الفصل الثاني:

التوجيهات النقدية في رحلة العبدري

أولا: النقد التأثيري الانطباعي

ثانيا: النقد الموضوعي

ثالثا: النقد الأدبي

رابعا: النقد البلاغي

خامسا: النقد اللّغوي

سادسا: النقد العروضي

سابعا: النقد التفسيري ونقد الشيوخ

لم يكن العبدري في تجربته النقدية أثناء الرّحلة التي قام بها محدود الرؤيا، وإنّما امتد منظوره النقدي على امتداد رحلته وشساعة فكره وفطنته وحسّه الذوقي الرفيع، فنجد نظرته النقدية موجّهة إلى مجالسة اثنين ألا وهما الأدب والمتمثل في الشعر، وكذلك المجتمع، حيث يمكننا أن نعدّها حلقة مترابطة ضمن حلقات النقد الأدبي في المغرب، وهذا ما جعلنا نخوض غمار الرّحلة، ونتقصى فيها، لأنّ الرحّالة لم يكد يترك جانبًا إلاّ وعالجه وأبدى رأيه فيه، ولم تكن أحكامه منصبة على النقد الأدبي وحسب، بلّ إنها تعدّته لتصل إلى النقد اللّغوي والنقد العروضي وغيرها، إذ تعدّدت الوقفات النقدية في الرّحلة و كانت كالآتي:

أولا: النقد التأثيري الانطباعي

يعد النقد الانطباعي من أبرز الاتجاهات والممارسات النقدية لدى النقاد القدامى، حتى وإن تميزوا بنظرة موضوعية علمية بناءة، والدافع لقولنا هذا أن الأثر الفنّي يتنوّع خطابه من منظوم ومنثور نتج عن عمق ذات إنسانية عاشت تجربة أدبية وفنية نقلتها في ألفاظ متواصلة ناقلة لصورة أدبية تساهم آليات النسخ والبناء فيها في رسم مقابل لها في متخيل القارئ.

وعليه فمهما حاولنا إخضاع هذا الأثر الأدبي لقواعد صارمة وآليات جزئية لن نتمكن من محو ذاتية المبدع ورؤيته الخاصة، حين قدم لنا هذا المولود الأدبي، والحديث نفسه يطبق على الناقد الذي يعدّ قارئا لمنتج فنّي نابع من ذات شاعرة يرسم في ذهنه متخيلاً ونصًا جديدًا أساسه النص الأصلي.

ومن بين صور النقد الانطباعي لدى العبدري، والذي يعتمد على الذوق والتأثر كما يظهر ذلك في المواقف الآتية كحكمه على قصيدة كيسرة والتي مطلعها:

يا من لصبٍّ يرى أشجانه النظر مهما تبدي له من حُبِّه أثر

يَفِيْ لهُ الصَّبْرُ عِنْدَ النَائِبَاتِ فإنْ يَلُحْ له أثرٌ لم يبقَ مَصْطَبِرُ

وذاكَ غير ذميم مـن مواقعـه إذا تعقبُهُ التنقيـح والنظر

وهي أزيد من مئة بيت من غر القصائد وأجزلها لفظا ومعنى.[1]

والتي نجدها قد تمايزت بين النقد الانطباعي المعلّل وغير المعلّل التي يكتفي فيه بالتعليق بصورة موجزة ومركزة دونما تحليل أو شرح كأحكامه الآتي ذكرها:

كقوله: «**هو تخميس لا بأس به**»[2] فعبارة لا بأس به هنا لا يمكن أن نفهم منها أنّ العبدري استحسن هذا النص أو لم يستحسنه.

وقوله: «**وكان لابن خميس نقد لم أرضه فلم يعلق بخاطري وذكره لي عن ابن خطاب وأنه لم يرضها، وذلك منهما تعسّف بيّن وهما قوله:**

نزعات رام وهي نزعـة ريمـــــة شقتْ صميم حشاي قبل أديمي

سلت ظُبَا الألحاظ مرهفة على قلب أرق من الهــوى المكتوم

وهذا أعذب ما يكون من الشعر وأرقه، وأحسنه لفظًا ومعنى»[3]؛ إن التماثل في هذا الإجراء النقدي الذي سبقه تقديم الناقد لرأيه في حكم نقدي لهذه الأبيات فنجده قد احتكم إلى رأيه الخاص وانطباعه، فصرّح بـ "نقد لم أرضه" فبمجرّد أنّ العبدري لم يقل ولم يستسغ هذا الحكم النقدي المقدم لم يشر إليه، وهذا يجعلنا نرى أن العبدري احتكم إلى انطباعه التأثيري، وأيضًا لما حكم على الأبيات بأنّها من الشعر وأرقّه لفظًا ومعنًى هو بهذا يؤكّد عدم قبوله لما سمع فحكم على الأبيات بضد ما سمع محكمًا في ذلك ذاتيته.

ثانيا: النقد الموضوعي

يعد النقد الموضوعي خطًا بارزًا في النقد لدى العبدري، ونجد في ذلك مداخلات عديدة في قراءة الأثر الإبداعي من زوايا مختلفة، ومن بين أوّل المحطات التي اعتمدها العبدري في البحث عن المواطن الجمالية للنص

---

[1]- رحلة العبدري، ص 494.

[2]- رحلة العبدري، ص 135.

[3]- رحلة العبدري، ص 66، 67.

الأدبي الاتجاه اللّغوي، فمن خلال ما ضمنه العبدري في الرّحلة من مواقف نقدية تطبيقية اهتمت بالجانب اللّغوي للنص، وبما يبيّن لنا اطلاعه الواسع على اللّغة العربية وتصوّره النقدي في أن التوظيف الجيّد والمناسب للّغة يساهم في تكامل النّص الإبداعي، ويتجلّى ذلك كالآتي:

وأنشد قصيدة منها قوله:

ويـــا بـــرقًا أضـــاء أوال يـــمانيًا مـــتى جئت الشـــاما

أتعثر أمـــامة أنت ابتسامًـا أم الـــدر الأوالي انـــتظاما

أمشبه قلبي المضني احتدامًا علاما ذُدتَ عن جِفْنِي المناما

.....

وَردت فلـــم أرد إلاّ سـرابًا وشمتُ فلـــم أشم إلاّ جهاما[1]

قلت: أشعر غير واحد أن يقال "الشام" بالمد في غير نسب، وليس إنكاره شيء، وهو ممدود فشعر حبيب[2]، وقد ردوه ولم يروه حجة، ونسو قولة النابغة الذبياني:

على إثر الأدلة والبغايا وخفقِ الناجيات من الشام [3]

ويروي من "الشام" بالمهملة، جمع شاملة وقوله: "علامات ذوق" الوجه فيه حذف الأنف، لأنّ "ما" الاستفهامية إذا دخل عليها حرف جر حذف منها الألف؛ لكثرة الاستعمال وفرق بينها وبين الخبرية، قال تعالى: ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكۡرَىٰهَآ ۝٤٣﴾[4]، وقال جلّ شأنه: ﴿فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾[5]، ولو حذفت الألف لصح الوزن وكان الجزء معقول، ولكنه زحاف قبيح.

---

[1]- رحلة العبدري، ص 59- 60.

[2]- المقصود بحبيب: هو حبيب بن أوس الطائي أبو تمام وهو شاعر معروف.

[3]- رحلة العبدري، ص 60.

[4]- سورة النازعات، الآية 43.

[5]- سورة الزمر، الآية 3.

من هنا يمكننا القول إنّ العبدري قبل أن يمارس العملية النقدية في إطارها التطبيقي فهو شاعر أديب، وهذا من خلال النّصوص التي قدّمها وهي من إبداعه، وعليه فإن اجتمعت ملكة الإبداع مع ملكة النقد فأكيد أن هذه الشخصية ستترك أثرا في الحركة الأدبية النقدية في بلاد المغرب خلال الفترة التي عاش فيها، ودليل ذلك بحثنا الذي حاولنا فيه دراسة بعض التوجيهات النقدية لهذه الشخصية أضف إلى ذلك بعض الدراسات النقدية التي تناولته، الرّحلة المغربية، التي تعدّ مؤلفه الوحيد، التي حقّقت من طرف ثلاث محقّقين، والتي استطاع من خلالها بلورة أفكاره، وتعديها في صور مختلفة.

ثالثا: النقد الأدبي

يلاحظ الدارس على تجربة النقد الأدبي عند العبدري أنّه نقد ذوقي ذو أحكام تأثيرية، اتكأ على الاستنتاجات الذاتية والتقويم الشخصي، فنراه ناقدًا غزير المادة، إذ ينتقد شعراء من المشرق وآخرين من المغرب ومن هؤلاء «**ابن خميس التلمساني، حازم القرطبي، أبو سالم العياشي، ابن الغماز، وغيرهم**»[1]

كما وجّه نقده إلى شعراء إلتقاهم في المشرق العربي ومن ضمنهم ابن المنير الذي «**وسمعت من لفظه قصيدته النبوية التي نظمها في سفره إلى الحجاز ثم كتبتها وقرأتها عليه وهي من حر القصائد ومن جملة إنصافه حفظه الله أني راجعته منها في ألفاظ قليلة رأيت غيرها أقعد بالمعنى فاستحسن ما ذكرته وأذن لي في إصلاحها على ما رأيت**»[2]، وهذا النقد والتقويم لقصيدة ابن المنير ينم عن فطرة سليمة يتمتع بها العبدري، وعن لغته المتينة، ودقة الملاحظة لديه، كما نلاحظ ذلك في قوله عن قصيدة ابن خميس التلمساني بأنّها:

---

[1]- الحسين رحمون: أثر أدب الغرب الإسلامي في الأدب العربي في المشرق خلال القرنين السابع والثامن الهجريين، مطبوعات الهلال، وجدة، المغرب، منشورات جامعة محمد الأوّل، د ط، 2011، ص 369.

[2]- ينظر: المرجع نفسه، ص 370.

«**مهذبة الألفاظ والمعاني**»[1]، وهذا القول دليل على تركيزه وعنايته بقضية اللّفظ والمعنى، وهي قضية نقدية مهمّة في التراث النقدي العربي بصفة عامة والمغاربي بصفة خاصة.

وها هو العبدري يولِيها اهتمامًا خاصًا، فتراه يهذّب ألفاظًا ويغيّر أخرى، كما يستحسن ما راقه، ووقع على ذوقه، وينتقد ما لم يستسغه «**كما فعل مع التوزي، فقد وجّه له انتقادًا واضحًا في الاستعمالات اللّغويّة للكلم، ويعطي أمثلة على ذلك**»[2]

كما نلاحظ في آراء العبدري النقدية إخضاعه في عملية النقد والتمحيص مجموعة كبيرة من النّصوص في آحيان كثيرة، فلا يقتصر نقده لتجربة شعرية فردية، بل يتعدّاها إلى النظرة البانورامية العّامة، كما فعل في نقده لشعر المشارقة وبعد استعمالاتهم النّحوية، كما في «**إدخالهم لفظة قط على الفعل المضارع**»[3]

كما نجد أنّه كان يحكم بجودة المعنى وابتكاره، كتعليقه على بيتي محي الدين المازوني[4]:

إذا ما الليالي جاورتْك بساقطٍ وقدْرُكَ مــرفوعٌ فعنهُ ترحَّل

ألم تَرَ ما لاقاهُ في جنْبِ جارهِ كبيرُ أناسٍ في بجادِ مُزمّلِ

بقوله: "وهذا المعنى الذي ابتكره حسن جدًا"[5]

ويعلّق على أبيات ابن خَطّاب المرْسيّ[6]:

اشكر لربّـك وانــتظر في إثر عُسْرِ الأمر يُسرا

واصبر لكرْبِكَ وادّخر في ستر ضرّ الفقر أجْرا

---

[1]–الحسين رحمون: أثر أدب الغرب الإسلامي في الأدب العربي في المشرق خلال القرنين السابع والثامن الهجريين، ص 371.

[2]– ينظر: الحسين رحمون: أثر أدب الغرب الإسلامي في الأدب العربي في المشرق خلال القرنين السابع والثامن الهجريين، ص 371.

[3]– المرجع نفسه، ص 373.

[4]– **محي الدين المازوني**: أحد الشيوخ الذين لقيهم العبدري بالإسكندرية.

[5]– رحلة العبدري، ص 268.

[6]– محمد بن عبد الله بن داود بن خطاب الغافقي الأندلسي: كاتب، أديب، عالم بأصول الفقه له شعر، توفي سنة 636هـ، محمد بن أحمد بن مريم: البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، تح: محمد ابن أبي شنب، الجزائر، 1908، ص 227.

فالدّهرُ يعثـر بـالورى والصبرُ بالأحـرار أحرى

والوفر أظهر مَعْشرًا والفقرُ بالأخيـار يغـرى

بقوله: «**نظام هذه الأبيات يدلّ على باعٍ مديد، وطبعٍ فاضل ومِقولٍ مجيد**»[1]

كما يعلّق العبدري لى بيتي أبي الطيّب الرُّندي[2]:

سلمت ظُبا الألحاظِ مُرْهفةً على قلبٍ أرقّ من الهـــوى المكتوم

نَزَعاتُ رامٍ وهـــي نـزعةُ ريمةٍ شَقَّتْ صميمَ حشايَ قبل أديمي

فيقول: «**وهذا أغرب ما يكون من الشعر وأرقّه، وأحسنه لفظًا ومعنًى**»[3]

ويُظهر هذا الحكم النقدي ثقافة المؤلّف النظرية وتأثره برأي ابن قتيبة في ضروب الشعر.[4]

ولم تكن وقفاته كلّها موجزة، ولكنّه كان يطيل في بعضها، وربّما علّل كتعليقه على القصيدة الشّقراطسية[5]، التي أوردها بتمامها في الرّحلة وجاءت في ثلاثة وثلاثين ومئة بيت فقال: «**قد أبدع هذا الناظم – رحمه الله– فيما نظم، وشرّف هذه القصيدة بقصده الجميل وعظّم، فراقت معنى ومنظرا، وشاقت حسّا ومخبرا على أنّه –رحمه الله– قد أكثر فيها لأجل الصّناعة التّصنّع، وتكلّف منها ما هو بعيد المرام شديد التّمتّع، واعترض في كل عنى عرض، وربّما أغرق النّزع فخالف الغرض، كقوله:**

---

[1]– رحلة العبدري، ص 62.

[2]– صالح بن يزيد بن صالح النفزي: أديب، شاعر من أهل رُندة ولد سنة 601هـ، وتوفي سنة 684هـ، لسان الدين بن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، تح: محمد عبد الله عنان، القاهرة، ج3، 1973، ص 360.

[3]– رحلة العبدري، ص 66- 67.

[4]– قسم ابن قتيبة الشعر إلى أربعة ضروب:

1- ضرب منه حسن لفظه وجاد.

2- ضرب منه حسن لفظه وحلا، فإذا أنت فتّشته لم تجد هناك فائدة في المعنى.

3- ضرب منه جاد معناه وقصرت ألفاظه.

4- ضرب منه تأخر معناه وتأخر لفظه، ابن قتيبة الدينوري: الشعر والشعراء، تح: أحمد محمد شاكر، دار المعارف، القاهرة، مصر، ج1، 1982، ص64-69.

[5]– قصيدة لامية في معجزات الرسول صلّى الله عليه وسلّم لعبد الله بن يحي الشقراطسيّ، وهي في الرحلة 119- 133.

فويل مكة من آثار وطأته ..... البيت.

وقوله:

وحل بالشام شؤم غير مرتحل.....»[1]

وكتعليقه على قصيدة ابن خَميس التّلمساني البائية، إذ قال:

«**هذه القصيدة مهذبة الألفاظ والمعاني، وألذّ من نغمات المثالث والمثاني، إلاّ أنّ مقطعها قلق ناب، لا يلين ولو مضغ بضرس وناب، ليس يلتئم بما قبله ولا يمتزج، ولا يزال السّمع به يقلق وينزعج، وقد زاولته أن يلتحم فأبى وحاولته كي يلتئم فنبا**»[2]

نلاحظ ممّا سبق سيطرة فكرة اللّفظ والمعنى على المصنّف، فهو تناول الألفاظ والمعاني، ورأى أنّ الألفاظ مهذّبة بمفردها، ولكنّها تكون قلقة عندما تأتلف مع غيرها لتشكّل المقطع.

وقد عُرف المؤلف بالصراحة في نقده، لذا نراه إذا لم يرق له شعرُ شاعر صرّح بذلك، فعندما تحدّث عن شعر ابن عريبة[3]، قال: «**وشعره مجموع ووقفت عليه بخطه، وأكثره قعقعة ما ترسل بغيث مُزْنًا، وكما قيل: جعجعة ولا أرى طِحْنا**»[4]

رابعا: النقد البلاغي

وهو وجه آخر من وجوه النقد، يعتمد على المعرفة بعلوم البيان والمعاني والبديع، وقد أكثر العبدري من الآراء النقدية التي تتعلّق بالأنواع البلاغية، وكانت هذه الآراء تدلنا على علوّ كعب المصنف في هذه العلوم، فمن ذلك قوله في نقده للقصيدة الشقراطسية: «**ولكن قصيدته بالجملة قد حلت من البلاغة في حصن ممنع، وجلت "وجها زهاه الحسن أن يتقنّع"**»[5]

---

[1]- رحلة العبدري، ص 133.

[2]- رحلة العبدري، ص 58

[3]- عثمان بن عتيق بن عثمان القيسي المهدوي: محدّث أديب شاعر، ولد في المهدية وتوفي بتبرسق وهو قاضيها سنة 659هـ، له تخميس على الشقراطسية، تراجما لمؤلفين التونسيين، محمد محفوظ، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ج3، 1982، ص 373.

[4]- رحلة العبدري، ص 135.

[5]- رحلة العبدري، ص 133- 134.

ومن هذا القبيل نقده لقصيدة ابن الفكون[1] في رحلته من قسنطينة إلى مراكش، إذ علّق على البيت:

بدورٌ بل شَموسٌ بل صباحٌ بهيٍّ في بَهيٍّ في بَهيٍّ

قال: «**وقوله:**

بدورٌ بل شَموسٌ بل صباحٌ

نزول مفرط وعكس للرتبة، فإنّ الشمس أشهر من الصّباح وأنور، والانتقال بالتّشبيه من الأعلى إلى الأدنى أشبه بالذّم منه بالمدح ولاسيما مع الإضراب.

وقوله:

إذا أنسونيَ الولدانَ حُسنا

ضعيف ساقط، لأنّ التّشبيه والتّمثيل يجب أن يكونا في كل صنعة تعارفه أهلها، واشتهر عندهم، هذا على تقدير التقييد في الولدان، فكيف واللّفظ مبهم مطلق، يدخل تحته كا ما يسمّى ولدًا»[2]

وقد يصحّح المصنّف للشاعر بعض الألفاظ التي استخدمها في شعره، فهو ينقد ابن الفكون في قوله:

وحلَّ رَشَا الرّباط رِشا رباطي

فقال العبدري: «**وقوله لفظ مختل جاف، ما جعله إلاّ التجنيس، وإذا وجد الرّشاء والرّباط فما بقي إلاّ الضّرب، وأيّ رقّة مع هذه الألفاظ الجافة؟ ولو قال: رشا ارتباطي، لكان أقرب مع بُعده لأنّه أراد التماسك والتثبّت فالارتباط به أليق**»[3]

فالعبدري مع إعجابه بمذهب البديع يقرّ بأنّ التجنيس، والمحسنات البديعية تكون ساقطة ولا قيمة لها إذا لم تخدم المعنى.

---

[1]- حسن ابن علي بن القسنطيني: أديب وشاعر من أهل قسنطينة رحل إلى مراكش ومدح خليفة بني عبد المؤمن كان حيًا سنة 602هـ، ابن القاضي المكناسي: درّة الحجال في أسماء الرجال، تح: محمد الأحمدي أبو النور، ج1، المطبعة الجديدة، الرباط، 1970، ص 236.

[2]- رحلة العبدري، ص 103.

[3]- رحلة العبدري، ص 102.

وإذا تأملنا إشاراته البلاغية في علم البيان نجده يهتم بالاستعارة لما فيها من صور فنّية تنقله إلى الإبداع والابتكار، يقول عن تخميس ابن حَبيش[1]، للقصيدة الشّقراطسية:

«...**وقد علّق بذهني أوّل تخميس منها وهي قوله:**

عَزْل الشّباب قضى أن المشيب ولي فما التغزّلُ من قولي ولا علمي

حَمْـــد الإلهِ ومَدْحُ المصطفى أملي الحــمد لله منّا بـاعث الرُّسل

هدى بأحمد منا أحمد السُّبل

أمّا تمكّنها فلأنّه لما جرت عادة الشّعراء بالافتتاح بالتغزّل، وطّأ بالافتتاح بغيره، ممّا ذكر من أنّ الوقت اللائق به التغزّل هو عصر الشّباب، وانّ اللائق بعصر الشّيب هو ذِكر الله، والإقبال على الحمد له، وأحسن الاستعارة في ذِكر الولاية والعزل، ولما رأى أنّ البيت متضمّن لمعنيين: حمد الله تعالى، ومدح رسوله صلّى الله عليه وسلّم، وطّأ لهما معًا في القسم الذي قبله حتى جاءت الأقسام والبيت في غاية التناسب، كأنّها نظم رجل واحد، وما ذكر من الولاية والعزل في الشّباب والشّيب استعارة حسنة واقعة موقعها»[2]

والعبدري يحبّ البديع ويحبّذه، ويفضّل أن يكون الأدب مرصّعًا به[3]، فعندما وصف منبر المسجد النبوي استشهد بقول الشّقراطسيّ:

حيّ فمات سُكونًا ثم مات لدن حيّ حنينًا فأضحى غاية المثل[4]

ثم قال شارحًا وموضحًا:

---

[1]- محمد ابن الحسن ابن يوسف بن الحسن بن يونس بن حبيش المرسي: فقيه، أديب، شاعر، راوية، نزيل تونس، توفي سنة 679هـ، تراجم المؤلفين التونسيين، ج2، ص 91.

[2]- رحلة العبدري، ص 136.

[3]- عبده عبد العزيز قلقيلة: النقد الأدبي في المغرب العربي، مطابع الهيئة المصرية العلمية للكتاب، ج1، ط1، مصر، 1988، ص 321.

[4]- رحلة العبدري، ص 451.

«يعني أنّه حين حيي بقرب النبي صلّى الله عليه وسلّم منه، كان ذا سكون، والسكون للميت، وحين مات بتحوّله عنه كان ذا حنين، والحنين للحيّ، وهذا بديع مليح جدًا

ولو روي: "فمات سكوتًا"، بالتاء المثناة، لكان أبدع للمطابقة بين السكن والحنين، ولكن الرّواية فيه بالنون»[1]

ومن هذا القبيل الإجابة عن سؤال أحدهم حين سأله: لم كرّر لفظ (إحداهما) في قوله تعالى: ﴿**أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰ**﴾[2]، إذ قال:

«...وهو أن إعادة لفظ إحداهما لتعادل الكلام وتوازن الألفاظ في التركيب، وتماثل أقسام الكلام فيما اشتملت عليه من المفردات، وهو المعنى بالترصيع، ولكن هذا أبلغ وأبدع، لأنّ الترصيع توازن الألفاظ من حيث صيغتها، وهذا من حيث تركيبها، وكأنّه ترصيع معنوي، وقلّما يوجد إلاّ في نادر من الكلام»[3]

وقد كشف العبدري في تعليقاته السابقة عن مذهبه الفنّي، وانّه مذهب أهل البديع الذي ساد عصره، ولم تكن لديه القدرة على الانفلات منه كمواطنه ابن خلدون صاحب أسلوب التّرسّل.[4]

خامسا: النقد اللّغوي

يُظهر مصنّف الرّحلة مقدرة فائقة في فهم دقائق اللّغة، ومعرفةً بأساليبها وألفاظها وتراكيبها، وتمكّنًا من قواعدها، لذا كانت آراؤه في مجال اللّغة تدلّ على ثقافته لأنّ النقد هو محكّ ثقافة المرء.

---

[1]- رحلة العبدري، ص 451.

[2]- سورة البقرة: الآية 282.

[3]- رحلة العبدري، ص 153- 154.

[4]- عبده عبد العزيز قلقيلة: النقد الأدبي في المغرب العربي، ج1، ص 321.

فما فتئ المصنف يتصدّى في مناسبات كثيرة لتصويب الأخطاء، ويناقش بعض الشّعراء في بعض الألفاظ التي يستخدمونها في أشعارهم، فنراه يقف عند قول الشّاعر ابن خَميس التّلمساني:

فإمّا سماءٌ أو تُخومُ تُراب

فيقول: «**الوجه فيه: وإمّا تخوم تراب بتكرير "أما" بعد حرف العطف، وقلّما يؤتى بها غير مكرّرة إلاّ نادرًا كقول الشّاعر**[1]:

إمَّا فتًى نال العُــلا فاشتفى أو بطلٌ ذاق الرّدى فاستراح»[2]

كما وقف عند قوله:

ويــا بــرقا أضــاء على أوالٍ يمــانيّا متــى جئت الشّآما

فقال: «..**أنكر غير واحد أن يقال الشآم بالمد في غير النسب، وليس إنكاره بشيء، وهو ممدود في شعر حبيب، وقد ردّوه ولم يروه حجّة، ونسوا قول النّابغة**[3]:

على إثر الأدلّة والبغايا وخفق الناجيات من الشام

ويروى: من السآم، بالمهملة جمع سامة، والحجّة في الرّواية الأولى.

وكذلك أنكروا تشديد الياء من اليَمانيّ لأنّ الألف كالعوض من التشديد، كما رأوا المدَّ بزعمهم في (شآم) عوضًا من تشديد ياء النَّسب، وإذا جاز مدّه في غير النَّسب جاز تشديد الياء مع المدّ، وقد أنشد المبرّد[4] على تشديد ياء اليماني مع زيادة الألف:

فأرعدَ من قبل اللّقاء ابنُ مَعْمرٍ وأبرق والبرقُ اليمانيُّ خَوَّانُ

---

[1]- الشاعر هو الشريف الرضي.

[2]- رحلة العبدري، ص 58- 59.

[3]- ديوانالنابغةالذبياني،النابغةالذبياني،تح:شكريفيصل،دمشق، 1968، ص 163.

[4]- أبي العباس محمد بن يزيد المبرد: الكامل، تح: محمد أحمد الدّالي، مؤسسة الرسالة، مصر، 1997، ص 123.

وهذا البيت أيضًا شاهد لمن قال: أرعد وأبرق بالألف أي: تهدّد. وأصله من الرّعد والبرق، وقد أنكره بعضهم بالألف، وقال: إنّما هو رَعَدَ وبَرَقَ بغير ألف، وكذلك رعدت السَّماء وبرقت، والصواب: أنّهما لغتان وأشهرهما بغير ألف، وعليها قول الشّاعر[1]:

فإذا حَلَلْتُ ودونَ بيتي سَاوةٌ فابرق بأرضِكِ ما بدا لك وأرعدِ[2]

ويقف العبدري عند بيت ابن خَميس[3]:

أمُشْبهَ قلبيَ المُضْنى احتدامًا علاما ذُدْتَ عنْ جفْني المناما

فيقول: «**وقوله: علاما ذدت الوجه فيه حذف الألف ما الاستفهامية إذا دخل عليها حرف جر حُذِفَ منها الألف لكثرة الاستعمال، وفرقا بينها وبين الخبرية.**

قال الله تعالى: ﴿**فِيمَ أَنتَ مِن ذِكۡرَىٰهَآ ۝٤٣**﴾[4].وقال جلّ شأنه: ﴿**فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ**﴾[5]

فالمصنّف عندما يناقش هذه الآراء يسوق أدلّته من القرآن الكريم وعيون الشعر العربي، ويستدل بآراء النّحاة ويناقشهم فيها

ويورد العبدري البيتين الآتيين:[6]

تكتُب العِــلْمَ في سَفطْ ثُمّ لا تحفظُ، لا تفلح قَطّ

إنّما يفلحُ من يحفظُ مِنْ بعد فَهْمٍ وتَوقٍّ مـن غَلَطْ

---

[1]- الشاعر هو المتلمس والبيت من ديوان: المتلمس الضبعي: الديوان، تح: حسن كامل الصيرفي، الشركة المصرية للطباعة والنشر، مصر، 1970، ص147.

[2]- رحلة العبدري، ص 61.

[3]- رحلة العبدري، ص 61.

[4]- سورة النازعات، الآية 43.

[5]- سورة الزمر، الآية 3.

[6]- رحلة العبدري، ص 264.

ويُعلّق عليهما قائلاً: «**لم يُسمع في كلام العرب إدخال قطّ على الفعل المضارع، وإنّما يُدخلونه على الفعل الماضي فيقولون: لم أفعل هذا قطّ، وذلك أن (لم) تصيّر الفعل في المعنى ماضيًا، ولا يقولون: لا أفعله قطّ، لأنّ قطّ مشتقة من قطَّ: أي يقطع، فمعناه: لم أفعله في كلّ ما مضى من الزّمان وانقطع...**»[1]، ويستدلّ على صحّة رأيه بقول الحريري في كتابه درّة الغوّاص:[2]

كما كان للعبدري ملاحظات نقديّة تمتُّ بصلة وثيقة إلى فقه اللّغة[3]، فعندما ذكر أبيات القاضي أبي حفص بن عمر[4]:

أجعلتُمُ العُلماء حُمْرًا مُوكَفَهْ هـذا لأنّكمُ أولو تـلك الصّفــهْ

أجَهَلْتُمُ صَفَةَ الإلــــهِ وفِعْلَهُ ونَسَيْتموهُ لغَيــــرِهِ بالزَّخْــــرَفَهْ

وأردتُمْ تـنزيهَهُ فَــوقَعْتــــمُ في الشِّرْكِ والألْحاد والأمْر السَّفَهْ

خالفْتُمُ سُنن النبيِّ وصَحْبِهِ وتبعتُمُ في الزَّيْغِ أهــــلَ الفَلْسَفَهْ

عقّب عليها بقوله:«**خفّف القاضي –رحمه الله– الحُمُر، والتّخفيف في (فُعُل) مطرّد إلاّ فيما يلتبس، وهو هنا يلتبس بجمع أحمر، فينبغي ألاّ يخفّف ولم يقرأ في السبع ﴿كأنّهم حُمُرٌ مُستَنْفرة﴾[5]إلاّ بالتّقليل، ومن هذه الحجة أنكر المحقّقون إسكان الباء في قوله صلّى الله عليه وسلّم: (اللّهم إنّي أعود بك من الخُبثِ والخَبائِثِ)[6] لما كان إمكانه يلتبس بالمفرد**»[7]

---

[1]– رحلة العبدري، ص 61.

[2]– القاسم بن علي بن محمد الحريري: درة الغواص في أوهام الخواص، تح: عبد الحفيظ فرغلي علي القرني، مكتبة التراث الإسلامي، مصر، ط1، 1996، ص 13– 14.

[3]– عبده عبد العزيز قلقيلة: النقد الأدبي في المغرب العربي، ج1، ص 301.

[4]– هو عمر بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن عمر السُّلميّ: فقيه قاض له شعر، تولى قضاء إشبيلية للموحدين وتوفي فيها سنة 603هـ، ابن سعيد الأندلسي: الغصون اليانعة في محاسن شعراء المئة السابعة،،تح: إبراهيم الأبياري، القاهرة، مصر، 1967، ص 91.

[5]– سورة المدثر: الآية 50.

[6]– أخرجه الترمذي عن أنس في كتاب الطهارة، باب مت يقال إذا دخل الخلاء، حديث رقم 05.

[7]– رحلة العبدري، ص 76.

ولا نعدم بعض الملاحظات التي تدلّ على إتقان المصنّف على النّحو، فقد انتقد أحد مُدرسّي النّحو في تلمسان بقوله:

«..**وقد حضرت بها مدرّسًا يقرأ عليه باب التوكيد من "الجمل" فسمعته يقول: كلا للمذكرين، وكلتا للمذكرتين، وأعربوا قول ابن دريد:**

هُمُ الذينَ جرّعوا مَنْ ما حَلُوا...

بأنّ هم مبتدأ، و الدين مبتدأ ثان، وجرعوا خبره، والجملة في موضع خبر الأوّل..»[1]

ومن هذا القبيل وقفته مع عرب برقة الذين يعجب من فصاحتهم، فيقول:

«..**وعرب برقة اليوم من أفصح عرب رأيناهم**»، ويعلّل ذلك بقوله:

«**لم يكثر ورود الناس عليهم، فلم يختلط كلامهم بغيره**»[2]، وهو تفسير صحيح لأنّ الجماعات المنقطعة في ناحية تكون لغتها أكثر محافظة من غيرها، وهذا ما حمل القدماء على تأخير زمن الاستشهاد بشعر أهل البادية عن شعر أهل المدن والحضر.

وساق العبدري أمثلة كثيرة على فصاحة أهل برقة صغارهم وكبارهم منها قوله:

«... **وقد سألت بدويًا وجدته يسقي أبله في الحَصَوي عن ما يقال له: أبو شمال هل نمرّ عليه؟ وذكرته بالواو في موضع الخفض على عادة أهل الغرب، فقال لي: نعم تطؤون أبا شمال، وأثبت النون في الفعل ونصب المفعول، وليس في الغرب عربي ولا حضري يفعل ذلك**»[3]

ومن أمثلة فصاحة أطفالهم قوله: «**ومررنا بأطفال منهم يلعبون، فقال لنا واحد منهم: يا حجّاج أمعكم شيء تبيعونه؟ وأثبت النّون وسكّن الهاء للوقف...**»[4]

---

[1]- رحلة العبدري، ص 50.

[2]- رحلة العبدري، ص 206.

[3]- رحلة العبدري، ص 207.

[4]- رحلة العبدري، ص 207.

ويورد المصنّف أمثلة على استخدام نادر الألفاظ، وغريبها في حديثهم اليومي فيقول:

«... **وأمّا نادر ألفاظ اللّغة وما جرت عادة أهل الغريب بتفسيره فهم حتّى الآن يتحاورون على سجيّتهم، فمن ذلك أنّ شخصًا منهم وقف عليّ بموضع نزولي من محلّه الرّكب، وكانت التّرعة منه بعيدة فقال لي: يا سيّدي تدعني أظْهَر؟ أيْ أخرج**»[1]

ويقول: «**وسمعت صبيًا ينادي في الرّكب: يا حجاج من يشتري الصّفيفَ، فلم يفهم عنه أكثر النّاس فقلت له: اللّحم معك، فال: نعم، وأبرز لحم ظَبْيٍ مُقدّد، وهذا اللّفظ ذكره مالك رضي الله عنه في الموطأ، وتهمّم بتفسيره، فقال بإثر الحديث: والصّفيفُ: القديد**»[2]

سادسا: النقد العروضي

تناول المصنّف الجانب العروضي في غير موضع من الرّحلة ما يدلّ على جانب آخر من معرفته، فإذا مرّت بشعر أحد الشعراء هفوّة عَرَّها أو ناقشها، فبعد أن يورد بيت الشاعر ابن خميس التلمساني:

أمُشبهَ قلبيَ المُضنى احتدامًا علاما ذُدتَ عن جفني المناما

ناقش إثبات الألف في "علام" وعدّه خطأً نحويًا، وقال بعد ذلك: ولو حذف الألف منها لصحّ الوزن وكان الجزء معقولاً ولكنّه زحاف قبيح»[3]

وكذا في تخميس أبي عبد الله المصريّ القصيدة إذ قال: «**أمّا ما خمس به أولاً قوله:**

وأبي عَمْرٍو ذي النورين الـ مستهدي المستحي البهجِ

فغلط لا شكّ فيه، لأنّه يؤدي إلى قطع همزة المستهدي، وبقطعها ينكسر البيت لزيادة حرفين على وزن الخَبَب ... وأمّا قوله:

---

[1]- رحلة العبدري، ص 207.

[2]- رحلة العبدري، ص 209.

[3]- رحلة العبدري، ص 61.

صلوات الله على المهدي الـ هادي الناسَ إلى النُّهجُ

وأظنّه خفّف فيه الياء، وقطع الهمزة بعدها ليتأتى له التخميس، لأنّ الأقسام تبنى على الترنّم كحرف الرَّويّ، وذلك موجب للمّد والإدغام يمنعه»[1]

وعندما أورد أبيات شيخه أبي العبّاس الغمَّاز الآتية:

أيا سامعَ الشَّكوى ويا دافعَ البلوى ويا كـاشفِ الأسـواءِ والبأسِ والضُّـرِّ

أسيرُ خـطايا يرتجي فـكَّ أسْرِهِ وإن لـم يكـن أهلاً لِفَـكٍّ من الأسْـرِ

وما ليَ لا أرجـو وإن كنتُ مُسْرفًا وأدري من الصَّفْحِ الجميلِ الذي أدري

قال إثرها: «**أتى شيخنا –حفظه الله– بعروض البيت تامة وإنّما سمعت مقبوضة، إلاّ أنّ التّرصيع الذي في البيت ربّما سوّغ ذلك كما في التّصريع، وقد وقع مثله في شعر المتنبي وتُعقّب عليه**»[2]

سابعا: النقد التفسيري ونقد الشيوخ

أظهر المؤلّف مقدرة على مفهم النّصوص القرآنية، وشارك في مناقشات كثيرة حول تفسير بعض الآيات، وكانت له آراء مصيبة[3]، كما شارك في تفسير بعض الأحاديث الشّريفة[4].

وبدا العبدري جريئًا في آرائه بالشيوخ الذين قابلهم من حيث المستوى العلمي والسلوك الأخلاقي، فهو يصرّح بأنّه لم يأخذ الفقه عن ابن عُبيد بطرابلس لأنّه قليل التوقير لمجلس العلم[5].

ويقول بعد أن حضر مجلس لابن جماعة قاضي بيت المقدس: «**فلم أحْلَ منهما بطائل، وكلّمته في أشياء تخبّط فيها وتعسّف، فلم أجد من نفسي إذعانًا للأخذِ عنه على قلّة همّته في الرّواية**»[6]

---

[1]– رحلة العبدري، ص 150.

[2]– رحلة العبدري، ص 152.

[3]– رحلة العبدري، ص 494.

[4]– رحلة العبدري، ص 188.

[5]– رحلة العبدري، ص 410.

[6]– رحلة العبدري، ص 484.

وحضر مجلس أبي محمد عبد السيّد بطرابلس فلم يفهم عنه إلاّ بعد مشقّة بسبب حبسة في لسانه، ووصفه بضيق الخلق وعدم الرّواية.[1]

وقال في أبي علي منصور بن محمد المشدالي بأنّه «**غير معتن بالرّواية ولا له فيها حظ**»[2]

ولا ريب أن مثل هذه الآراء لا تصدر إلاّ عن عالم حاذق، عارف بالشّيوخ ومستواهم العلمي، قادر على تقويمهم، وإعطاء كل ذي حقّ منهم حقّه.

كانت تلك آراء العبدري النقدية، وقد لاحظنا عليها الاعتماد على الذّوق المشفوع بمعرفة غنية، وملكة ثقفتها التجربة والخبرة، فالمؤلف لم يكن يقبل إلاّ ما وافق قواعد اللّغة والبلاغة والعروض، وكانت نقداته يغلب عليها الإيجاز وقلّة التعليل، وإن كنا لا نعدم فيها تعليلاً أو قياسًا أو استشهادًا أو مناقشة.

[1]- رحلة العبدري، ص 473.

[2]- رحلة العبدري، ص 186-187.

ملحق:

أولا: التعريف بالمؤلف

ثانيا: تسمية الرّحلة

ثالثا: أسباب الرّحلة

رابعا: مدّة الرّحلة

خامسا: أهمية الرّحلة

سادسا: منهج العبدري في تأليف الرّحلة

سابعا: مصادره في تأليفها

ثامنا: أسلوب العبدري في كتابة الرّحلة

تاسعا: مضامين رحلة العبدري

أولا: التعريف بالمؤلف

أ- مولده ونشأته:

هو أبو عبد الله محمد بن علي بن أحمد بن مسعود العبدري صاحب الرّحلة، تكون ولادته حوالي سنة (643هـ/1245م)[1]، فالعبدري الحاحي ينتمي إلى بلاد حاحا جنوب المغرب الأقصى، ومن المؤلفين من يقول الحاحي، ومنهم من يقول الحيحي[2]، وينسب إلى العبد الدار واسم العبدري مرتبط ببلنسية من حيث أصل أسرته وبالصويرة (على مقربة من مغادور) بمراكش من حيث سكنى هذه الأسرة، ولعلّ ذلك كان في طفولة العبدري أو صباه.[3]

وقد أهمل ذكر العبدري في المصادر القديمة، فلم يشر إليه أحد من القدماء ولم يخصّه مؤلّف بترجمة وافية، رغم كثرة النقل عن رحلته التي اشتهر بها والاستفادة ممّا ورد فيها، لذلك كانت رحلته هي المصدر الوحيد، الذي اعتمد عليه كل من ترجم أو استفاد من معلوماته[4]، ورغم وجود كُتب الطبقات والتراجم والفهارس إلاّ أنّنا لا نكاد نعلم عن سيرة العبدري إلاّ القليل، فقد ترجم له أحمد ابن القاضي المكناسي في جذوة الاقتباس، ترجمة لا تكاد تعكس شخصية العبدري لكونها مختصرة جدًا لم يتناول فيها تاريخ ولادته ووفاته وحتى نشأته[5]، وهي لا تعكس المقام اللائق لشخصيته.

---

(1)- ينظر: العباس بن إبراهيم السّملالي: الإعلام لمن حلّ مراكش وأغمات من الأعلام، ج4، المطبعة الملكية، الرباط، ط2، 1993، ص 287.

(2)- تازي عبد الهادي: رحلة الرحلات مكة في مائة رحلة مغربية ورحلة، ج1، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، الرياض، المملكة العربية السعودية، 2005، ص 81.

(3)- نقولا زيادة: الجغرافية والرحلات عند العرب، الشركة العالمية للكتابة، لبنان، 1987، ص 170.

(4)- الحسن الشاهدي: أدا الرحلة بالمغرب في العصر المريني، ج1، 173.

(5)- أحمد بن محمد المكناسي ابن القاضي: جذور الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام بفاس، ج1، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، المغرب، 1976، ص 367.

أشار الكتّاني صاحب "فهرس الفهارس" إلى العلاّمة المحدث المسند الرحّالة العبدري المعروف بأبي البركات حاحة، وروى "فهرسة العبدري" من طريقين مختلفين:[1]، ولا نظن انّه عنى بالفهرسة الرّحلية لأنّه ضرب من التّأليف يختلف بينًا عن التأليف في الرّحلات [2]، بينما نرى رحلة العبدري تتعدّى ذلك فهي تتناول شيوخ تتلمذ عنهم، أو سمع منهم ومشهادات متنوعة عن جوانب ومجالات مختلفة.

ويبدو أنّ الأمر اختلط عند خير الدين الزركلي صاحب موسوعة الأعلام عندما جعل للرّحالة العبدري ترجمتين مختلفتين [3]، ومن جهة أخرى لا ينبغي الخلط بين العبدري صاحب الرّحلة المغربية وبين أبي بكر محمد بن عبد الله بن ميمون العبدري القرطبي[4]، الذي تميّز بمؤلفات عديدة وأشعار كثيرة، لكنّه يبدو لم يشتهر بالرّحلة أو التأليف فيها.

وإذا كان كل من ترجم للعبدري بعد ابن القاضي اعتمد على رحلته في استخلاص ما تعلّق بحياة صاحبها و مستواه العلمي ومكانته في عصره فإنّه وقع الكثير من الخلط والارتباك في هذه التراجم لأنّ المألوف في هذه الرحلات أن أصحابها لا يهتمون غالبا بشؤونهم وأوضاعهم في رحلاتهم، لأنّ الاهتمام ينصب على كل ما يشاهدونه في الرّحلة، وما يجدون في طريقهم من رواية أو استماع، أو إجازة، أو شعر، ...إلخ، ممّا يجعل الرّحلة قاصرة عن إعطاء صورة واضحة عن مستوى صاحبها في الثقافة والعلم، لهذا وقع التضارب بين الذين ترجموا للعبدري[5]، لكن ابن عبد الملك المراكشي أشار إلى عدد من أصحابه في كتابه "الذيل والتكملة"، وكان يقصد

---

[1]- عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني: فهرس الفهارس والأبيات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات، تحقيق: إحسان عباس، دار العرب الإسلامي، بيروت، لبنان، د ت، ص 809.

[2]- رحلة العبدري، ص 09

[3]- خير الدين الزركلي: الأعلام، دار العلم للملايين، ج7، ط15، 2002، ص 153.

[4]- محمد بن عبد الله بن ميمون العبدري: المفسر والفقيه والأديب وصاحب شرح الإيضاح للفارسي، وشرح مقامات الحريري، وشرح معشّراته، ومكفّراته الزهدية، وشرحات على الجمل للزجاجي في النحو الكبير والصغير، توفي سنة 567هـ، ينظر: إبراهيم بن علي بن محمد ابن فرحون: الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، تحقيق: علي عمر، مج2، مكتبة الثقافة الدينية، ط1، 2003، ص 265- 266.

[5]- الحسن الشاهدي: أدا الرحلة بالمغرب في العصر المريني، ج1، 174.

بهم أقرانه الذين اشتركوا معه في الأخذ والرّواية عن الشيوخ، فمنهم العبدري صاحب الرّحلة[1]، فقد وصف العبدري «**بصاحبنا الفقيه الأديب الأوحد**»[2]، ويعني هذا أنّ العبدري عاصر ابن عبد الملك المراكشي وكان يجمعهما اتصال وثيق.

اشتهر العبدري بابن المعلم لأنّ والده كان معلمًا ولا نعرف من أحداث حياته إلاّ ما أشار إليه في ثنايا رحلته[3]، وهناك اختلاف بين الذين ترجموا للعبدري في موطنه، هل هو من بلنسية أو حاحة أو مراكش أو من فاس، كما نجد اتلاف في تحديد تاريخ ولادته ووفاته، وينفرد شوقي عطا الله برأي هو أنّ العبدري من مواليد فاس وزوجته هي التي تنتمي لإحدى قبائل حاحة، ويبدو هذا غريب، إذ لم يشاطر هذا الرأي أحد[4]، وممّا لاشكّ فيه أنّ محمد العبدري عربي مغربي صميم رحّالة خدم علم الجغرافية برحلته[5]، من خلال المعلومات التي دوّنها عن المواقع الجغرافية، والمعالم الأثرية وعادات سكان البلاد التي مرّ بها.

ويتكرّر الاختلاف في كنيته "أبو محمد أبو عبد الله"، ووضّح الأستاذ الفاسي هذا التضارب وبيّن أنّ كُنيته هي أبو عبد الله واسمه محمد، وهذا ما ورد في غالب النسخ المخطوطة الموجودة في رحلته، وربّما يرجع هذا الخطأ لكونه يلقّب كذلك بإبن الحاج العبدري الفاسي[6]، وظنّ البعض أن هذا الابن كان يرافق أباه في هذه الرّحلة،

---

[1]- محمد بن محمد بن عبد الملك الأنصاري الأوسي المراكشي: السفر الثامن من كتاب الذيل والتكملة، تحقيق: محمد بن شريفة، القسم1، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، المغرب، 1984، ص 42.

[2]- رحلة العبدري، ص 302.

[3]- عمر فروخ: تاريخ الأدب العربي، ج6، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط1، 1983، ص 401.

[4]- جحمة نواف عبد العزيز: رحلة الغرب الإسلام وصورة المشرق العربي من القرن السادس إلى القرن الثامن الهجري، دار السويدي للنشر والتوزيع، ط1، 2008، ص 83- 84.

[5]- دفاع علي بن عبد الله: رواد علم الجغرافيا في الحضارة العربية الإسلامية، مكتبة التوبة، ط2، 1993، ص192.

[6]- محمد بن الحاج العبدري: فقيه صوفي، كنيته أبو محمد وهو صحاب (المدخل)، من أهل مدينة فاس، توفي سنة 737هـ، ينظر: أحمد بن محمد المكناسي ابن القاضي: درة الحجال في أسماء الرجال، ص 228.

استنادًا إلى النّصوص التي ضمنها وصاياه ونصائحه له[1]، وقد يكون سبب هذا الخلط هو الرّحلة التي صعّبت التمييز بينهما، وكلمة "العبدري" المشتركة بينهما.

ب- تعليمه وشيوخه:

لا يذكر العبدري شيئًا عن دراسته الأولى، ولا تقدّم لنا المصادر معلومات كافية عن بداية تكوينه الثقافي، ولا يستبعد أن يكون تتلمذ على يد والده المعلم، ودخل الكتّاب كما كانت العادة في حاحة، فحفظ القرآن الكريم، وتعلّم طريقة التدرّج من حفظ المتون، وتعلّم الحساب، ثم ارتقى إلى أن أصبح من طلاّب العلم، عندما انتقل إلى مراكش التي كانت آنذاك مركزًا علميًا مرموقًا، فأخذ عن مجموعة من علمائها أمثال محمد بن علي بن يحي الشّريف الفقيه، قاضي الجماعة بحضرة مراكش، الذي كان شيخه وشيخ صاحبه ابن عبد الملك المراكشي.[2]

وإذا لم تسعفنا كُتب التراجم والأخبار بتفصيل عن حياة العبدري، فإنّه لا يخفى علينا معرفة البيئة الثقافية والعلمية التي نشأ فيها، فالرحّالة العبدري من عائلة علم وأدب وتدريس، حيث ورد في ترجمة أبيه في أحد مخطوطات الرّحلة بالرّباط بأنّه الشيخ الصالح الخطيب، أمّا أخوه يحي الذي صاحبه في رحلته فهو من أهل العلم[3]، فقد قرأ العبدري رفقة أخيه في تونس على شيخ الصالح أبو العباس أحمد البطراني[4]، وحصلا منه على الإجازة العلمية[5]، واستفاد الرحّالة العبدري من شيوخ وأعلام كثيرون.

كان يحي أخوه الذي رافقه في رحلته، هو الآخر من أهل العلم لكنّه لم يكن في مستوى العبدري صاحب الرّحلة لأنّه لا يوجد له ذكر في المناقشات والمواقف المختلفة، لكن من خلال إشارتين وردتا في الرّحلة

---

[1]- جحمة نواف عبد العزيز: رحلة الغرب الإسلام وصورة المشرق العربي من القرن السادس إلى القرن الثامن الهجري، ص 84.

[2]- **ابن عبد المالك المراكشي**: هو محمد بن محمد بن محمد بن عبد المالك المراكشي الأنصاري الأوسي، مؤرخ وقاض وأديب، مفتي مقرئ، مولده ليلة الأحد 10 ذي القعدة 364هـ، توفي 703هـ ودفن بتلمسان. رحلة العبدري، ص 08.

[3]- جحمة نواف عبد العزيز: رحلة الغرب الإسلام وصورة المشرق العربي من القرن السادس إلى القرن الثامن الهجري، ص 84- 85.

[4]- **أبو العباس أحمد البطراني**: هو أحمد بن موسى بن عيسى بن أبي الفتح الأنصاري البطراني، الفقيه، المقرئ، الأستاذ الرّاوية المكثر من أهل تونس، ضرير البصر، ديّن، صالح، معتن بالعلم والرّواية، مواظب على أفعال الخير، توفي يوم السبت 20 ربيع الأول 710هـ،ينظر: رحلة العبدري، ص 557.

[5]- الحسن الشاهدي: أدا الرحلة بالمغرب في العصر المريني، ج1، ص 180 .

يتبيّن أنّه كانت له مشاركات علمية أبدى فيها وجهة نظره وآرائه فيها[1]، فلا يعقل أن يكون لأخيه يحي آراء في مسائل علمية دون إطلاع عليها، وهذا يدلّ على أنّ يحي نشأ هو الآخر في بيئة علمية.

أفاد العبدري من تنوع مشايخه، وتنوّع مشاربهم الثقافية، ممّا أهّله إلى إتقان فنون كثيرة، ظهرت واضحة في رحلته التي بدأ فيها المؤلّف حافظًا للقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، مطّلعًا على الأدب العربي نثره وشعره، وخطبه ورسائله، عارفًا بأيام العرب وغزواتهم، وخطبائهم من الفصحاء، كما كان على دراية كبيرة بالأسماء والألقاب والكُنى، وأسماء الأماكن وضابطًا لمصطلحات علوم الأدب والبلاغة والعروض.[2]

ج– رحلته:

قام العبدري برحلته في الخامس والعشرين من ذي القعدة عام ثمانية وثمانين وستمائة، ومبدؤها من حاحة في اتجاه بلاد القبلة[3]، وكان عندها في مقتبل عمره عندما قال شيخه أبو زيد الدبّاغ[4]:«**أنت أولى بها منّي، فإنّي شيخٌ على الوداع، وأنت في عنفوان عمرك، ومن حين رأيتك انغرَزَ حُبّك في قلبي**»[5]، فإذا افترض أنّه كان آنذاك في الخامسة والأربعين، بدليل قوله عن ابن خميس التّلمساني[6]، الذي كان –حين لقيه بتلمسان في الثامنة والثلاثين من عمره بأنّه «**فتيّ السّن**»[7]، ويبدو أنّ الرحّالة المغاربة كانوا يحبّذون الرّحلة في سنِّ الشباب أو الكهولة لتحمّل مصاعب الرّحلة.

---

[1]– الحسن الشاهدي: أدا الرحلة بالمغرب في العصر المريني، ج1، 180.

[2]– رحلة العبدري، ص 08.

[3]– رحلة العبدري، ص 40.

[4]– **أبو زيد الدباغ**: الفقيه، المحدث، الرّاوية المتقن، وهو عبد الرحمن بن محمد بن علي بن عبد الله الأنصاري الأسيدي من ولد أسيد بن حضير الصحابي الجليل رضي الله عنه، ينظر رحلة العبدري، ص 164.

[5]– رحلة العبدري، ص 164.

[6]– **ابن خميس التلمساني**: (645– 708هـ) أبو عبد الله محمد عمر بن محمد بن عمر الحجري الرعيني، شاعر فحل، عالم بالعربية، ولد بتلمسان، وبها نشأ وأخذ عن مشايخها، ولاه السلطان أبو سعيد بن يغمراسن ديوان الإنشاء وأمانة سرّه، ينظر: عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر، بيروت، لبنان، ط3، 1983، ص 135.

[7]– رحلة العبدري، ص 07– 08.

كان من وراء رحلة العبدري سببان على المضي فيها، الأوّل تمثّل في القيام بفريضة الحج وزيادة الأماكن المقدسة، والاتصال بالمتصوّفة والصّالحين، والثاني هو رغبته في لقاء المشايخ والأخذ عنهم، وكانت رحلته ذات هدف مزدوج كمعظم الرّحلات الحجازية، أمّا مدّة الرّحلة فيبدو أنّها استمرت أكثر من سنتين.[1]

د- وفاته:

وردت اختلافات بين المؤرخين حول تاريخ وفاة الرحّالة العبدري، بل نجد منهم من لم يقف عند تاريخ وفاته[2]، فقد قدّره عمر فرّوخ أن تكون نحو سنة (725هـ/1325م)[3]، وذكر صاحب معجم المؤلفين أنّ العبدري كان حيًا سنة (688هـ/1289م)[4]، وهناك من يرى أنّ العبدري مجهول تاريخ الميلاد والوفاة، ويحتمل أن تكون وفاته قريبة بعد عودته من المشرق لأنّه لو عمّر طويلاً لظهرت له مؤلفات قيّمة ومشاركات في العلوم التي أبدع فيها[5]، لكن أغلب الظّن أنّ وفاته كانت بعد سنة (700هـ/1300م)[6]، ومهما يكن فإنّ العبدري يبقى من أشهر الرحّالة المغاربة الذين عاشوا خلال القرن 7هـ/13م، وخلّفوا آثارًا واضحة في فن الرّحلة وآدابها.

ثانيا: تسمية الرّحلة

اختلف الباحثون في اسم هذه الرّحلة، فمنهم من يسمّيها رحلة العبدري، وبعضهم يسمّيها بالرّحلة المغربية.أمّا إذا عدنا إلى النسخ المخطوطة المتوفرة لدينا من هذه الرّحلة فإنّنا نجد بأنّ اسمها لم يكن واحدًا في جميع هذه النّسخ، فقد كتب على غلاف نسخة باريس "رحلة العبدري"، وهي الرّحلة المغربية وقريبًا منه ما كتب على غلاف نسخة تونس "رحلة الشيخ العبدري".

---

(1)- رحلة العبدري، ص 10- 11.

(2)-ينظر: محمد بن محمد مخلوف: شجرة النور الزّكية في طبقات المالكية، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، د ت، ص 217.

(3)- عمر فروخ: تاريخ الأدب العربي، ج6، ص 402.

(4)-كحالة عمر رضا: معجم المؤلفين تراجم، مصنفي الكتب العربية، ج3، مؤسسة الرسالة، د ت، ص 658.

(5)- نواب عواطف محمد يوسف: الرحلات المغربية والأندلسية، مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين السابع والثامن الهجريين، دراسة تحليلية مقارنة، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، المملكة العربية السعودية، ص 118.

(6)- المرجع نفسه، ص 07- 08.

وهذا يدلّ لنا أنّ الرّحلة عرفت باسم صاحبها، وهذا أمر مألوف في الرّحل عمومًا والمغربية والأندلسية خصوصًا، فقد كان يغلب على اسم الرّحلة اسم صاحبها فتشتهر به ويشيع ذلك بين الناس حتى يكاد ينسى الاسم الحقيقي للرّحلة، كرحلة ابن بطوطة ورحلة ابن جبير، فقلّ ما يعرف أنّ اسم رحلة ابن جبير هو تذكرة بالآثار على اتفاق الأسفار، ولذلك فإنّنا نرجّح أن يكون العبدري قد وضع اسمًا لرحلته إلاّ أنّه لم يحفظ ولم يعش طويلاً، وبقي اسم العبدري علمًا على رحلته.

ثالثا: أسباب الرّحلة

كان وراء رحلة العبدري سببان رئيسيان حملاه على المضي فيها:

السّبب الأوّل ديني: ألا وهو القيام بفريضة الحج وزيارة الأماكن المقدّسة، والاتصال بالمتصوّفة والصّالحين، وكان العبدري قد صرّح مرارًا بأنّه ينوي الإقامة بمكة ومجاورتها، وبأنّه قد اكترى المنزل وجهّز لوازمه، وصرف الرّكب إلى المغرب، لولا حدوث أمور هناك أرغمته على الرّحيل عن مكة.[1]

السّبب الثاني: هو رغبته في لقاء المشايخ والعلماء والأخذ عنهم، حيث كان العبدري حريصًا عن البحث عن السند العالي فيما أخذه هن هؤلاء العلماء والمحدثين، حيث رأينا العبدري في سؤال دائم عن الأحوال العلمية والثقافية في البلاد التي حلّ وارتحل إليها، فإذا صادف مجموعة من العلماء في بلد ما طرب لذلك وانشرحت نفسه فانطلق لسانه ثناءً وحمدًا، كما حدث معه في تونس.[2]

وإذا لم يجد هذا النّوع من العلماء هجَا بلسانه الدّرب هذه البلاد وأهلها كصنيعته في قابس وطرابلس.[3]

---

[1]- رحلة العبدري، ص 391.

[2]- رحلة العبدري، ص 108، بتصرف.

[3]- رحلة العبدري، ص 184، بتصرف.

رابعا: مدّة الرّحلة

استمرت مدّة الرّحلة لأكثر من سنتين، كما ذكر الباحث حسن حسني عبد الوهاب أنّ العبدري زار تونس مرّتين في طريق ذهابه إلى الحج سنة (677هـ/1279م) وعند رجوعه سنة (291هـ/1292م).[1]

ومنه يكون العبدري قد أمضى ثلاث سنوات في رحلته، ويؤكّد هذا البلوي حين أورد أبياتًا للعبدري في رحلته، حيث قال في هذا الشأن: «**أنشدها في تونس في رجب الفرد سنة 1291**»[2]

فمن المحتمل إذًا أن يكون العبدري قد عاد في هذه السنة من الحجاز وأقام في تونس سنة أخرى كما فعل نظيره ابن رشيد السبتي سنة 1321م صاحب "ملء العيبة"، حيث يؤكّد هذا الاحتمال ما ذكره العبدري عن أهل تونس، وكياستهم وعلمهم، فقد أعجب العبدري بعلمائها ومجالسهم العلمية والدّليل على ذلك قوله عند دخوله تونس بعد عودته من الحجاز «**وقد أقمت بها مدّة حتى شفيتُ الحشا العليل، ونقعت بوردها الغليل، وقطعت فيها الغدو الأصيل لمجالسة كل فاضل جليل، فهنا انفصل كل عالم يوضح الحلك مهما أجاب، إلاّ إلى صالح يختلب به دو الحساب ولا أغدو عن مجلس أدبي كمقطع الرياض، إلاّ إلى محفل وعظ يسقي الخدود بالدمع الفياض، فقطعتها أيامًا من عقلات الدهر مختلسات، وانتظم لي شمل أنس طالما مُني بالشتات، علم يبقى بها شيخٌ مذكور إلاّ رأيته، ولا علم مشهور إلاّ أتيته**»[3]

إذا رحلة العبدري كانت ذات هدف مزدوج ككثير من الرّحلات الحجازية التي كان أصحابها يقصدون الدّيار المقدّسة لأداء فريضة الحج، ويغتنمون الفرص ليلتقوا الشيوخ في المدن التي كانوا يمرّون بها، ويأخذون عنهم ما يتيسّر لهم من العلوم والمعارف المختلفة.

---

[1]- محمد بن أحمد التجاني: رحلة التجاني، حققها: حسن حسني عبد الوهاب، دار صادر، ليبيا وتونس، 1971، ص ي ز.

[2]- خالد البلوي: تاج المفرق في تجلية علماء المشرق، تحقيق: الحبيب السائح، المحمدية، المغرب، د ت، ص 109، بتصرف.

[3]- رحلة العبدري، ص 489.

خامسا: أهمية الرّحلة

لم تنل رحلة العبدري مكانتها بين الرّحلات أو من نسبها إلى علماء الاستشراق الذين انكبّوا عليها دراسة وترجمة وكان أوذل من اشتغل بها المستشرق الفرنسي "مانسان" في مقال نشره بالجريدة الآسيوية ثم نشر المستشرق "شريونو" بالجريدة الآسيوية هو الآخر مقالاً عنها أتبعه بترجمة بعض فصولها.

وبقيت هذه الرّحلة حبيسة الرّفوف إلى أن جاء الأستاذ أحمد بن جدو وحاول أن يخرجها للنّاس فطبعها منقوصة غير تامة، وزاد في سوءتها كثرة الأخطاء، ثم طبعت في المغرب بعناية الدكتور محمد الفاسي، إلاّ أنّ هذه الطبعة أيضًا لم تف بحقّ الرّحلة، ولم تقدّمها للنّاس على شكلها الصحيح، ويبدو أنّ وقت الدكتور الفاسي لم يتّسع لأكثر من ذلك فدفعها للطبع بسرعة تحدوه الرّغبة في أن يطّلع عليها جمهور الباحثين والقرّاء، فخرجت الرّحلة يعتريها بعض النقص، والتصفّح والتحريف، وخلت أو كادت من التعليقات الضرورية لإيضاح ما يتعلّق فهمه لدى القرّاء.

وما يدلّ على أهمية هذه الرّحلة هو انتشار نسخها المخطوطة في كثير من مكتبات العالم، واحتفال المؤرخين لها، إذ نقل كثير منهم عنها كالتنبكتي صاحب "نيل الابتهاج" الذي أفاد منها أيّما إفادة ونقل كثير من التراجم، وعدّها مصدر من مصادر كتابه.[1]

سادسا: منهج العبدري في تأليف الرّحلة

كان العبدري قد وضّح في مقدمة الرّحلة منهجه في تأليفها قائلاً: «**وبعد فإنّني قاصد بعد استخارة الله سبحانه، إلى تقييد ما أمكن تقييده ورسم ما تيسّر رسمه وتسويده، ممّا سما إليه الناظر المطرق، في خبر الرّحلة إلى بلاد المشرق، مع ذكر بعض أوصاف البلدان، وأحوال من بها من القطعان، حسبما أدركه الحس والعيان، وقام عليه بالمشاهدة شاهد البرهان، من غير تورية ولا تلويح، ولا تقبيح حسن، ولا**

[1]- أحمد بابا التنبكتي: نيل الابتهاج بتطريز الديباج، تح: عبد الحميد عبد الله لهرامة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، د ت، ص 109- 222.

تحسين قبيح، بلفظ قاصد لا يجم مفردًا ولا يجمح فيتعدى المدى مسطرًا لما رأيته بالعيان ومقرّرًا له بأوضح بيان، حتى يكون السامع لذلك كالمبصر...»[1]

وقد كان العبدري وفيا لهذا المنهج الذي ارتضاه لرحلته مطبّقًا له، فقد وصف البلدان وصفًا دقيقًا، بمبانيها وآثارها، ولباسهم، ومستواهم العلمي، ولم يكن متساهلاً في نقد ما كان يراه غير طبيعي سواء في أخلاق الناس، أو في عاداتهم، وخصوصًا فيما يتعلّق بالناحية العلمية للبلاد التي كان يدخلها، كقوله عن طرابلس«**ثم وصلنا مدينة طرابلس، وهي للجهل مأتم وما للعلم فيها عرس، أقفرت ظاهرًا وباطنًا، وذمّها الخبير بها سائرًا وقاطنًا**»[2]

ويقول عن تلمسان«**وأمّا العلم فقد درس رسمه في أكثر البلاد، وغاضت أنهاره فازدحم عل الثماد، فما ظنك بها وهي رسم عفا طلله ومنهل جفّ وشله**»[3]

أمّا عن تقسيم الكتاب فلا نكاد نلمح تقسيمًا واضحًا، ولكنّنا نجد فيه بعض الفصول التي كان كثيرًا ما يلجأ إلى عقدها عندما يريد الوقوف على ظاهرة، والتفصيل فيها تفصيلا يبعد قليلاً عن غرض الرّحلة ومنهجها، مستطردًا في حديثه عن بلد وما يختص به، أو عن تاريخه كما صنع في الحديث عن عجائب مصر ونبلها، والحديث عن بناء المسجد الحرام، والكعبة وأسمائها.[4]

كما ترجم العبدري للشيوخ الذين لقيهم، وكان كثيرًا ما يذكر تاريخ ولادة الشيخ، ورحلته في طلب العلم، ويتبع ذلك أحيانا بالحديث عن بعض طبائع الشيخ وعاداته.[5]

---

[1]- رحلة العبدري، ص 28.

[2]- رحلة العبدري، ص 184.

[3]- رحلة العبدري، ص 49.

[4]- رحلة العبدري، ص 311، 312.

[5]- رحلة العبدري، ص 299- 497.

وكثيرًا ما كان العبدري يستطرد لبعض الآراء التي استوجب منه مناقشة وتوضيحًا، كما صنع في مشاركته الفقهية، ومناقشاته العلمية.[1]

سابعا: مصادره في تأليفها

تحتوي الرّحلة التي بين أيدينا على معلومات جغرافية وأدبية وتاريخية، بالإضافة إلى المعلومات الفقهية، لذلك نلاحظ تنوّع مصادره تنوعًا كبيرًا ككُتب السيرة والحديث والتصوّف، وكتب الجغرافيا والرّحل والتاريخ والدّواوين الشعرية.

وقد صدر للعبدري في ذلك كله عن طاقاته من المصادر المتنوعة كالمشاهدة، ثم الرّواية، ثم المصنفات المختلفة التي نقل عنها، ويمكن أن نصف المصادر التي نقل عنها ضمن الطوائف الآتية:

- المصادر الجغرافية والتاريخية: ككتاب "المسالك والممالك" لأبي عبيد البكري، وأخبار مكة لأبي الوليد الأزرقي، و"طبقات الأمم" للقاضي صاعد.
- كتب الحديث المختلفة: الصحاح وغيرها، إضافة إلى كتاب "غريب الحديث" لأبي عبد القاسم بن سلام، وكتاب "مشارق الأنوار" للقاضي عياض.
- كتب السيرة النبوية: "كسيرة ابن إسحاق" و"الروض الآنف" لأبي القاسم المهبلي.
- كتب الفقه المالكي: "كالمدونة" لعبد الرحمن بن القاسم، و"العتبية" لمحمد بن العتبي القرطبي، و"التلقين" للقاضي عبد الوهاب.
- كتب التصوّف: ككتاب "التشوق" لابن الزيات، و"منار العلم" لأبي سعيد الحاحي المترازي.
- الدواوين الشعرية والمجموعات: ك "ديوان المتنبي" و"النابغة" و"الحماسة" ويتيمة الدهر للثعالبي.

[1]- رحلة العبدري، ص 101- 205.

- بالإضافة إلى كتب أخرى في القراءات والتراجم "كالتيسير" و"المقنع" لأبي عمرو الداني.[1]

وقد لاحظ المستشرق كراتشوفسكي كثرة نقول العبدري مما دفعه إلى القول: «**ومن المؤكّد أنّه على معرفة بمن سبقوه في هذا الاتجاه. وهو عندما يضمن وصفه كلامًا من المسعودي أو البكري إنّما يدفعنا بذلك إلى إعمال الحذر بل التساؤل هل يعتمد وصفه على المصادر المكتوبة دون الملاحظة المباشرة**»[2]

ثامنا: أسلوب العبدري في كتابة الرّحلة

من خلال قراءتنا لرحلة العبدري نستطيع أن نتعرّف عن خصائص نثره الفنّي، ومكانته الأدبية، وهو في هذا النثر لا يخرج عن الأسلوب الذي كان شائعًا أو سائدًا في عصره، وهو أسلوب النضج والتزويق اللّفظي، وغن كنا لا نعلم مواضيع ابتعد فيها الكاتب عن هذا الأسلوب وترك نفسه على سجيّتها، فجاء أسلوبه مرسلاً بعيدًا عن قيود الصنعة، وبذلك نرى صاحب الرّحلة لم يستلزم أسلوبًا واحدًا في رحلته بل زاوج بين أسلوبي الصنعة والطبع.

1- طغى على أسلوب العبدري في رحلته الصنعة والتكلّف، فقد فشا فيها السّجع والجناس وما إلى ذلك من المحسنات البديعية التي يجد المؤلّف فيها ذهنه ويعمل فكره ويقسوا على نفسه ليلاءم بينهما، ويزوق ألفاظه وجمله بها.[3]

2- أمّا في أسلوبه المرسل فنجد العبدري يترك نفسه على سجيّتها، وعبارته من دون قيد السجع ومحسنات البديع، فتجيء واضحة سهلة، جلية المعاني، بعيدة عن الغموض، خالية من زخارف الألفاظ والتصنّع، ونلمح هذا في مجالات الوصف والمناقشات العلمية، وعند حديثه عن بعض الشيوخ من ذلك ما قاله ابن خميس التلمساني:«**وما رأيت بمدينة تلمسان من ينمّي إلى العلم، ولا من يتعلّق منه بسبب سوى صاحبها أبي عبد**

---

[1]- كراتشوفشكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة: صلاح الدين هاشم، دار الخانجي، القاهرة، 1963، ص 01- 368.

[2]- المرجع نفسه، ص 368.

[3]- رحلة العبدري، ص 201- 202- 338.

الله بن محمد عمر بن محمد خميس، وهو فتيّ السن، مولده عام خميس، وله عناية بالعلم مع قلّة الرّاغب فيه والمعين عليه، وحظ وافر من الأدب وطبع فاضل في قرض الشعر»[1]

تاسعا: مضامين رحلة العبدري

تحتوي رحلة العبدري على مضامين متشعبة يتعذّر علينا الإحاطة بها جميعًا في هذا العمل، ولذلك سنصبّ اهتمامنا على أبرز هذه المضامين، وهي المضمون الجغرافي والمضمون الأدبي والمضمون الاجتماعي.

أ- المضمون الجغرافي:

تحتوي الرحلات بشكل عام على معلومات جغرافية مهمة، من وصف المسالك والطرق والبلدان والآثار المختلفة، إضافة إلى ما تصفه من مظاهر بشرية وطبيعية واقتصادية.

ورحلة العبدري كغيرها من الرحل، تضم بين طياتها معلومات قيّمة في هذا الشأن، فالعبدري يصف لنا بدقّة الطريق التي كانت تسلكها قوافل الحجاج برًا من المغرب إلى الحجاز، ويحدّد لنا المراكز التي يحط فيها الحجاج رحالهم للاستراحة، ويعدّد لنا المناهل التي يتوقف فيها الحجاج للتزوّد بالماء، كقوله يعدّد المناهل التي في برية ما بين الحجاز ومصر ويحدّد المسافات بدقة «**وما مناهل هذه البرية فمن البركة إلى السويس ثلاثة أيام، وهي بئر غزيرة واسعة وهناك ينقطع بحر الشرق فيدور السالك من ورائه ويتركه يمينًا، ولا يزال محاديًا له إلى مكة وماء السويس ملحٌ لا يكاد يساغ لملوحته، وخباثة مطعمه، ولكن بالقرب منه على نحو عشرة أميال أو أزيد قليلاً ماء يقال له: مغبوق، وهو ماء عذب طيب، ومن مغبوق إلى بئر النخل ثلاثة أيام، وهي بئر واحد بكبة ماؤها شريب...**»[2]

[1]- رحلة العبدري، ص 53.

[2]- رحلة العبدري، ص 335 - 336.

كما تطرّق العبدري إلى وصف المدن والأنهار وكثير ممّا شاهده في طريقه، يقول في وصف بلدة آنسا

«**وأما بلد آنسا –جبره الله– فهو بلد منفسح منشرح في بسيط مليح، طيب التربة، وبه ماء جار...**»[1]

ب– المضمون الأدبي:

كان الجانب الأدبي غالبًا على رحلة العبدري لأنّ العبدري أديب قبل أن يكون فقيهًا[2]، فقد تضمنت الرحلة كثيرًا من الشعر والنثر والنقد، ما جعلها مصدرًا من المصادر الأدبية المهمة للقرن السابع الهجري.

لن نتطرّق لشعر العبدري لأنّه ليس مضمون بحثنا ولكنّنا سنحاول استعراض ما تضمنته هذه الرّحلة من شعرٍ لغيره من الشعراء، فقد ضمت هذه الرّحلة نحو ألف وسبع مئة بيتا من الشعر له ولغيره، ودار موضوع هذا الشعر في أغلبه حول المعاني الدينية من زهد ووعظ ومديح نبوي.

ويعود الفضل لرحلة العبدري في الاحتفاظ ببعض القصائد والمقطعات التي تفرّدت بها، أو التي قل ما نجدها في المصادر الأدبية الأخرى، ومن أبرزها قصيدة ابن المولى التي مطلعها[3]:

أنسمُ ريقك أخت آل العنبر هذا أم استنشاقة من عنبر

وقصيدة ابن الفكون في رحلته من قسنطينة إلى مراكش، وكان مطلعها[4]:

ألا قل للسري ابن السّري أبي البدْرِ الجوادِ الأريحيّ

والقصيدة الشقراسطية لأبي محمد عبد الله ابن يحي الشقراسطي ومطلعها[5]:

الحمد لله منّا باعث الرّسل هدَى بأحمد منّا أحمد السُّبل

والقصيدة النبوية لعلي بن محمد بن منصور المالكي المعروف بابن المنير التي مطلعها[6]:

أجب دعوة الرحمن يا صاح تسعد وبادر لفرض الحج لغير مفنّد

---

[1]– رحلة العبدري، ص 42.

[2]– محمد بن تاويت: الوافي بالأدب العربي في المغرب الأقصى، الدار البيضاء، المغرب، 1982، ص 393.

[3]– رحلة العبدري، ص 68.

[4]– رحلة العبدري، ص 97.

[5]– رحلة العبدري، ص 119.

[6]– رحلة العبدري، ص 234– 238.

ج- المضمون الاجتماعي:

نقف في رحلة العبدري على ملامح اجتماعية قد لا نعثر عليها في غيرها، فالرّحالة لم يكن يقصر لقاؤه على العلماء فقط، بل كان يختلط بأفراد المجتمعات في البلاد التي كان يمر بها، ويجالسهم ويتحدث إليهم، ممّا جعله يطلع على أحوالهم الاجتماعية من عادات وتقاليد وأنماط العيش.

فقد أخذ على أهل برقة استخدم نسائهم في البيع والشراء، حيث قال عنهم: «**ويستعملون نسائهم في البيع والشراء، فلا يتواصل الحجاج إلى شراء القوت إلاّ بغرض متبدل وحال مهفوت**»[1]

كما تطرّق إلى أزياء نساء برقة قائلاً: «**ومن العجب عندهم أن كل امرأة لابد لها من خرقة تسدلها على وجهها ويسمونها البرقع، وهي تتخيل الناس مكشوفة الرأس والأطراف، حافية القدمين ولا تهتم بشر ما سوى وجهها، كان ليس لها عورة سواه فلا تزال تلك الخرقة عرضة للإتساخ، ومرصدًا لعارض الأوساخ...**»[2]

كما يشير العبدري إلى بعض الظواهر الاجتماعية، كالبخل عند أهل تلمسان فيقول «**وجهل أهل القبلة وحسن ظنهم بأهل الدين، وأبوائهم للغريب وحمايتهم للجار**»[3]

ولم يغفل الحديث عن المذاهب التي يعتنقها أهالي بعض البلدان «**فأهل جربة دو أصحاب مذاهب**»[4]

ويبدي العبدري اهتمامًا خاصًا بالحديث عن البدع التي يعتقدها أهالي البقاع المقدسة، كحكمهم على من ينفد من باب الغار بجبل ثور **فهو ولدُ زِنَى** [5]، ويصوّر تزاحم الحجاج على الكعبة وبئر زمزم وغيرها.[6]

---

[1]- رحلة العبدري، ص 204.

[2]- رحلة العبدري، ص 204.

[3]- رحلة العبدري، ص 48.

[4]- رحلة العبدري، ص 43.

[5]- رحلة العبدري، ص 391.

[6]- رحلة العبدري، ص 369.

خاتمة

في ختام بحثنا هذا حول الرحلة في الأدب العربي، ومن خلال تجربة العبدريّ، توصلنا إلى مجموعة من النتائج، نذكر أهمها:

- تعتبر الرحلة من أهم الأجناس الأدبية التي حملت مخزونا أدبيا ونقديا وجغرافيا وتاريخيا واجتماعيا وثقافيا، وغير ذلك من السياقات، نظرا لقدرة الرحالة على الانتقال الدائم عبر الأقطار المختلفة.
- يعد "العبدري" من أهم الأدباء العرب الذين اشتهروا بأدب الرحلة، والذين تميزوا بالاختلاف عن غيرهم بالرحلة الحجازية لأنّ موضوعها الحج وهو موضوع غير معهود في أدب الرحلات.
- تميزت رحلة "العبدري" بمجموعة من المميزات الفنية، والتوجهات النقدية ؛ حيث تركزت المميزات الفنية العامة لرحلة العبدري حول اللغة والسرد وجمال الوصف والبلاغة والايقاع ، إضافة الى المضامين من خلال السياقات التاريخية والاجتماعية والثقافية وغير ذلك، التي تبرز فطرته السليمة في عملية نقده لمختلف الخطابات الأدبية التي كانت تلقى أمامه في رحلته.
- تميزت التجربة النقدية للعبدري بالنقد الشامل للأدباء والشعراء وحتى الشيوخ والفقهاء، حيث اتفق مع بعضهم، واختلف مع آخرين.
- اتسم العبدري بالشدة والعلمية وعدم التساهل في نقد ما كان يراه غير طبيعي؛ خاصة الناحية العلمية للبلاد التي كام يحل بها، ذلك حتى لا يخرج عن الأسلوب والسياق السائد في كل مرحل
- للرحلة العبدرية فضل كبير في الاحتفاظ بكثير من النصوص الأدبية والمقتطفات الشعرية التي قلما نجدها في المصادر الأدبية الأخرى، من خلال التقاطعات النصية مع نصوص أخرى غائبة، فالرحلة كانت تحاور مع تلك النصوص.

لاشكّ أنّ الرّحلة العبدرية ذات متعة فكرية، كما أنّها معين أدبي وفكري، فهي تلقي الضوء على مرحلة مهمة من تاريخنا، وتكشف بعض نماذج التواصل الثقافي بين مدن المغرب الإسلامي وتحيلنا على المظاهر العمرانية

للمدن التي زارها العبدري، وعلى أخلاق الناس فيها، كما أنّ ارتسامات صاحبها تنمّ على المظاهر الحضارية، والتزام حلقات العلماء ومجالس الفقهاء، وتمدنا بمعلومات أدبية ونقدية تبيّن سعة ثقافة العبدري، وحضور مخيّلته في تدوين المشاهدات، ومن تمام القول أنّ الرّحلة العبدرية نص مفتوح لا تنصبّ مادته سواء للمؤرخ أو للجغرافي أو لعلماء الاجتماع، كما يمكن لدارسي الأدب مقاربة نصوصها من نواحي أدبية ونقدية مختلفة.

وبعد هذه شذرات من النتائج التي أتيح لي الوقوف عندها عسى أن أكون قد بلغت بعض ما أردت، وأن أكون قد أعطيت الموضوع حقه من الدراسة والحمد لله من البدء إلى الختام وأفضل الصلاة على خير الأنام.

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم برواية رواية ورش عن نافع

1- المصادر

العبدري أبو عبد الله محمد بن محمد: رحلة العبدري، تح: الدكتور علي إبراهيم الكردي، دار سعد الدين للطباعة والنشر، ط2، 2005.

2- المعاجم

1. إبراهيم مصطفى حامد عبد القادر، أحمد حسن الزيات، محمد علي النجار، المعجم الوسيط، الجزء الأول، المكتبة الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع، استانبول، تركيا، د ت.

2. عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر، بيروت، لبنان، ط3، 1983..

3. عبد النور جبور: المعجم الأدبي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط2، 1984.

4. كحالة عمر رضا: معجم المؤلفين تراجم، مصنفي الكتب العربية، ج3، مؤسسة الرسالة، د ت.

5. مجدي وهبة: معجم مصطلحات الأدب، مكتبة لبنان، بيروت، لبنان، د ط، 1974.

3- المراجع

1. إبراهيم بن علي بن محمد ابن فرحون: الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، تح: علي عمر، مج2، مكتبة الثقافة الدينية، ط1، 2003.

2. ابن خلدون عبد الرحمن: المقدمة، تح: عبد السلام الشدادي، خزانة ابن خلدون، بيت الفنون والعلوم والآداب، الدار البيضاء، المغرب، ، ط1، 2005.

3. ابن سعيد الأندلسي: الغصون اليانعة في محاسن شعراء المئة السابعة، ، تح: إبراهيم الأبياري، دار المعارف، القاهرة، مصر، 1967.

4. ابن قتيبة الدينوري: الشعر والشعراء، تح: أحمد محمد شاكر، دار المعارف، القاهرة، مصر، ج1، 1982.

5. أبو الفرج قدامة بن جعفر: نقد الشعر، تح: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، د ط، د ت.

6. أبي العباس محمد بن يزيد المبرد: الكامل، تح: محمد أحمد الدّالي، مؤسسة الرسالة، مصر، 1997.

7. أحمد بابا التنبكتي: نيل الابتهاج بتطريز الديباج، تح: عبد الحميد عبد الله لهرامة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، د ت.

8. أحمد بن محمد المكناسي ابن القاضي: جذور الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام بفاس، ج1، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، المغرب، 1976.

9. أحمد بن محمد المكناسي ابن القاضي: درة الحجال في أسماء الرجال، تح: محمد الأحمدي أبو النور، ج1، مكتبة دار التراث، القاهرة، مصر، د ت.

10. الأصطخري: المسالك والممالك، دار الهلال، مصر، 1946.

11. آمنة يوسف: تقنيات السّرد في النظرية والتطبيق، دار الحوار للنشر والتوزيع، سوريا، ط1، 1997.

12. تازي عبد الهادي: رحلة الرحلات مكة في مائة رحلة مغربية ورحلة، ج1، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، الرياض، المملكة العربية السعودية، 2005.

13. محمد محفوظ، تراجم المؤلفين التونسيين، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ج3، 1982.

14. جحمة نواف عبد العزيز: رحلة الغرب الإسلام وصورة المشرق العربي من القرن السادس إلى القرن الثامن الهجري، دار السويدي للنشر والتوزيع، ط1، 2008.

15. الحبيب مونسي: شعرية المشهد في الإبداع الأدبي، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، 2003.

16. الحسن الشاهدي: أدب الرّحلة بالمغرب في العصر المريني، ج1، منشورات عكاظ، المغرب، ط2، 2002.

17. حسن نصار: أدب الرحلات، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، مصر، ط1، 1991.

18. الحسين رحمون: أثر أدب الغرب الإسلامي في الأدب العربي في المشرق خلال القرنين السابع والثامن الهجريين، مطبوعات الهلال، وجدة، المغرب، منشورات جامعة محمد الأوّل، د ط، 2011.

19. حسين هيكل: في منزل الوحي، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط8، 1119هـ.

20. حميد لحميداني: بنية النّص السّردي من منظور النقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط3، 2003.

21. خالد البلوي: تاج المفرق في تحلية علماء المشرق، تح: الحسن بن محمد السائح، المحمدية، المغرب، ط1، د ت.

22. خير الدين الزركلي: الأعلام، دار العلم للملايين، ج7، ط15، 2002.

23. دفاع علي بن عبد الله: رواد علم الجغرافيا في الحضارة العربية الإسلامية، مكتبة التوبة، ط2، 1993.

24. النابغة الذبياني: ديوان النابغة الذبياني، تح: شكري فيصل، دار الفكر، دمشق ، 1968.

25. ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة، تح: حسين مؤنس، دار المعارف، مصر، 2003.

26. ابن جبير الكناني: رحلة ابن جبير، دار صادر للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1852.

27. شكيب أرسلان: الرحلة الحجازية، دار النوادر، بيروت، لبنان، ط1، 2007.

28. العباس بن إبراهيم السّملالي: الإعلام لمن حلّ مراكش وأغمات من الأعلام، ج4، المطبعة الملكية، الرباط، ط2، 1993.

29. عبد الحليم عويس: ابن حزم الأندلسي وجهوده في البحث التاريخي والحضاري، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، ط2، 1988.

30. عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني: فهرس الفهارس والأبيات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات، تح: إحسان عباس، دار العرب الإسلامي، بيروت، لبنان، د ت.

31. عبد الرحيم الكردي: البنية السّردية في القصة القصيرة، مكتبة الآداب، ط3، د ت.

32. عبد العظيم علي قناوي: الوصف في الشعر العربي، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ج1، د ط، 1949.

33. عبد الله محمد العياشي: الرّحلة العياشية، تح: سعيد الفاضلي وسليمان القرشي، مج1، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي، ط1، 2006.

34. عبده عبد العزيز قلقيلة: النقد الأدبي في المغرب العربي، مطابع الهيئة المصرية العلمية للكتاب، ج1، مصر، ط1، 1988.

35. عمر فروخ: تاريخ الأدب العربي، ج6، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط1، 1983.

36. فواز الشعار: ، إشراف: إميل يعقوب، ج1، دار الجيل، بيروت، لبنان، د ط، 1999.

37. القاسم بن علي بن محمد الحريري: درة الغواص في أوهام الخواص، تح: عبد الحفيظ فرغلي علي القرني، مكتبة التراث الإسلامي، مصر، ط1، 1996.

38. القاسم بن يوسف التيجيبي السبتي: مستفاد الرّحلة والاغتراب، تح: عبد الحفيظ منصور، الدار العربية للكتاب، تونس، ط1، 1975.

39. كراتشوفشكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، تر: صلاح الدين هاشم، دار الخانجي، القاهرة، 1963.

40. لسان الدين بن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، تح: محمد عبد الله عنان، دار الكتب العلمية، القاهرة، ج3، 1973.

41. المتلمس الضبعي: الديوان، تح: حسن كامل الصيرفي، الشركة المصرية للطباعة والنشر، مصر، 1970.

42. محمد ابن باديس الشافعي: ورحلة الشافعي، نشر: محي الدين الخطيب، د ط، المطبعة السلفية، القاهرة، مصر، 1350هـ.

43. محمد بن أحمد التجاني: رحلة التجاني، تح: حسن حسني عبد الوهاب، دار صادر، ليبيا وتونس، 1971.

44. محمد بن أحمد بن مريم: البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، تح: محمد ابن أبي شنب، المطبعة الثعالبية، الجزائر، 1908.

45. محمد بن تاويت: الوافي بالأدب العربي في المغرب الأقصى، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، المغرب، 1982.

46. محمد بن عثمان المكناسي: الإكسير في فكاك الأسير، تح: محمد الفاسي، المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط، المغرب، د ت.

47. محمد بن محمد بن عبد الملك الأنصاري الأوسي المراكشي: السفر الثامن من كتاب الذيل والتكملة، تح: محمد بن شريفة، القسم 1، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، المغرب، 1984.

48. محمد بن محمد مخلوف: شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، د ت.

49. محمد عبد الله: السّرد العربي، أوراق مختارة من تلقي السّرد العربي الأوّل وملتقى السّرد العربي الثاني، رابطة الكتاب الأردنيين، ط1، 2011.

50. محمد علي باشا: الرّحلة الشامية، تحرير: علي أحمد كنعان، سيكو للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 2002.

51. محمد نجيب العمامي: الوصف في النّص السّردي بين النظرية والإجراء، دار محمد علي للنشر، صفاقس، تونس، ط1، 2010.

52. مصطفى سالم عبد الله جلوص: أدب الرّحلات عند العرب، نشأته وتطوّره، ابن بطوطة أنموذجا، ط1، منشورات المركز الوطني للمحفوظات والدراسات التاريخية، سلسلة الدراسات التاريخية، الجماهيرية العربية الليبية، 2009.

53. نقولا زيادة: الجغرافية والرحلات عند العرب، الشركة العالمية للكتابة، لبنان، 1987.

54. نواب عواطف محمد يوسف: الرحلات المغربية والأندلسية، مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين السابع والثامن الهجريين، دراسة تحليلية مقارنة، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، المملكة العربية السعودية، د ت.

55. نوال الشوابكة: أدب الرحلات الأندلسية المغربية حتى نهاية القرن التاسع الهجري، دار المأمون للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2001.

3- الدوريات والمجلات العلمية:

1. سعيد علوش: الصورة العربية في الذاكرة الشرقية، ضمن مجلة "الثقافة الأجنبية (محور أدب الرحلات)، بغداد، العراق، السنة التاسعة، العدد الثالث، 1989.

2. صلاح الدين الشامي: الرّحلة العربية في المحيط الهندي ودورها في خدمة المعرفة، مجلة الفكر، الكويت، شتاء 1983.

3. فوزية قفصي: شعرية الوصف في أدب الرحلة، رحلة ابن بطوطة أنموذجا، مجلة التواصل، العدد 37، جامعة باجي مختار، عنابة، الجزائر، مارس 2013.

4. محمد سعيد الدغلي: الحياة الاجتماعية في الأندلس وأثرها في الأدب العربي والأدب الأندلسي، مجلة المناهل، ع95، 96، يوليو 2013.

5. عبد العليم محمد إسماعيل علي: تقنيات السّرد أساس أدبية الرّحالة، جائزة الطيب صالح العالمية للإبداع الكتابي، الدورة الثامنة، 2018.

4- الرسائل الجامعية والمذكرات:

1. إسماعيل زردومي: فن الرحلة في الأدب المغربي القديم، رسالة دكتوراه، إشراف: الدكتور عبد الله العشّي، جامعة باتنة، الجزائر، 2006/2005.

2. سميرة أنساعد: الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري، دراسة في النشأة والتطوّر والبنية، رسالة لنيل شهادة الدكتوراه، إشراف: الشريف مريعي، جامعة الجزائر، 2007/2006.

فهرس المحتويات

العنوان	الصفحة
شكر وعرفان	
مقدمة	أ
مدخل مفاهيمي: أدب الرّحلة المفهوم والمصطلح	
أولا: مفهوم الرّحلة	6
أ- لغة	6
ب- اصطلاحا	6
ثانيا: أدب الرّحلة	7
1- تعريف أدب الرّحلة	7
2- دواعي الرحلات	8
3- أهمية الرحلات	10
4- أنواع الرحلات	11
أ- الرحلات الدينية	11
ب- الرحلات العلمية	12
ج- الرحلات التجارية	12
د- الرحلات السياحية	13
هـ- الرحلات الرسمية	13
ثالثا: الرّحلة الحجازية	14
رابعا: ثوابت الرحلة الحجازية	15
خامسا: الجوانب الفنية في الرّحلة الحجازية	16
1- الجانب الجغرافي	16
2- الجانب الاقتصادي	19
أ- الصناعة في الحجاز	19

ب- الزراعة في الحجاز	20
3- الجانب الديني	22
4- الجوانب الاجتماعية	24
أ- طبقة حكام الحجاز	25
ب- طبقة العلماء في الرحلات الحجازية	27
ج- طبقة المهن في رحلات الحجاز	28
د- العادات والتقاليد لأهل الحجاز	30
هـ- الأعياد والاحتفالات لأهل الحجاز	31
الفصل الأول: الجوانب الفنية في رحلة العبدري	
أولا: حول مفهوم الوصف	35
1- مفهوم الوصف	35
2- وظائف الوصف في أدب الرّحلة	36
أ- الوظيفة التفسيرية	36
ب- الوظيفة الجمالية	36
ج- الوظيفة السردية	37
د- الوظيفة التصويرية	37
3- الجانب الوصفي في رحلة العبدري	37
أ- وصف مكة	37
ب- وصف الكعبة المشرفة	39
ج- وصف المسجد الحرام	39
د- وصف المدينة المنورة	40
هـ- وصف مسجد رسول الله عليه الصلاة والسلام	41
و- وصف الروضة الشريفة	42

ز- وصف قبة الصخرة	43
ثانيا: تمثلات الهجاء	44
1- هجاء سكان الإسكندرية	44
2- هجاء سكان القاهرة	46
ثالثا: تجليات السرد	47
1- تعريف السرد	47
2- أشكال السرد	48
أ- السّرد التابع	48
ب- السّرد المتقدّم	48
ج- السّرد الآني	48
د- السّرد المدرج في ثنايا الزمن الحكائي	48
3- أساليب السّرد	49
أ- الأسلوب الدرامي	49
ب- الأسلوب الغنائي	49
ج- الأسلوب السينمائي	49
4- سرد بداية الرّحلة	49
5- سرد لما اعترضه في الرّحلة	51
6- دخول المدن ولقائه بعلمائها	52
6-1- دخول المدن	52
أ- الجزائر	52
ب- بجاية	52
ج- قسنطينة	53
د- تونس	53
6-2- لقاء العلماء	54
أ- لقاؤه لابن باديس	54
ب- لقاؤه للشاطبي	54

ج- لقاؤه لابن هارون	55
7- سرد جهل الحجاج	55
رابعا: الاقتباس	56
خامسا: الاستطراد	56
سادسا: تلوينات بديعية	57
1- الترصيع	57
2- الجناس	57
3- الطباق والمقابلة	58
سابعا: الجانب التاريخي	58
ثامنا: الجانب الاقتصادي	59
تاسعا: الجانب الاجتماعي	60
الفصل الثاني: التوجيهات النقدية في رحلة العبدري	
أولا: النقد التأثيري الانطباعي	62
ثانيا: النقد الموضوعي	63
ثالثا: النقد الأدبي	65
رابعا: النقد البلاغي	68
خامسا: النقد اللّغوي	71
سادسا: النقد العروضي	76
سابعا: النقد التفسيري ونقد الشيوخ	77
ملحق	
أولا: التعريف بالمؤلف	80
أ- مولده ونشأته	80
ب- تعليمه وشيوخه	83
ج- رحلته	84
د- وفاته	85
ثانيا: تسمية الرّحلة	85

ثالثا: أسباب الرّحلة	86
رابعا: مدّة الرّحلة	87
خامسا: أهمية الرّحلة	88
سادسا: منهج العبدري في تأليف الرّحلة	88
سابعا: مصادره في تأليفها	90
ثامنا: أسلوب العبدري في كتابة الرّحلة	91
تاسعا: مضامين رحلة العبدري	92
أ- المضمون الجغرافي	92
ب- المضمون الأدبي	93
ج- المضمون الاجتماعي	94
خاتمة	96
قائمة المصادر والمراجع	99
فهرس المحتويات	107